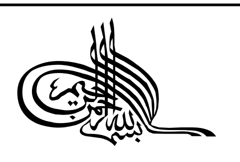


أُدْعُ إِلَى سَبِيْلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ
بِالَّتِيْ هِيَ أَحْسَنُ (القرآن الحكيم)





مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ٦ ، السنـــــة : ٤٣

جمادى الآخرة ١٤٤٠هـ ، فبراير – مارس ٢٠١٩م

الاشتراكات

- ثمن النسخة : ٣٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٣٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولاراً
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولاراً

عنوان المجلة على الانترنت
Web : http://www.darululoom-deoband.com/arabic/magazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني

E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس تحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس

Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المحتويات

كلمة المحرر

كوابيس .. وراء الكواليس

وافق المجلس الشعبي الهندي على مشروع القانون الذي يحرِّم الطلقات الثلاث، المعروف بمشروع صيانة حقوق المرأة المسلمة وسط احتجاجات وضَجَّات ومعارضةٍ من الأحزاب المعارضة الهندية، و خروجها من قاعة المجلس الذي كان يشهد النقاش حوله. وينصّ المشروع على عقوبة المُقْدِم على الطلقات الثلاث في مجلس واحد بمعاقبته بالسجن مدة ثلاثة أعوام بالإضافة إلى غرامة مالية، وعدم تمكن مراكز الشرطة المحلية من إطلاق سراح المتهم بكفالة وضمان. و يحق للمطلقة أن تسجل البلاغ ضد زوجها المطلِّق ثلاثًا هي أو أحد عصبتها. وتزعم الحكومة المركزية التي تصرّ- إصرارًا لا مزيد عليه- على سنِّ هذا القانون وتمريره أن من شأنه أن يوفر للمرأة المسلمة حياةً كريمةً عزيزةً، ويعيد إليها حقوقها المهضومة.

والجدير بالذكر أن الحكومة المركزية كانت عرضت مشروع قانون صيانة حقوق المرأة المتزوجة المسلمة عام ٢٠١٧م، في المجلس الشعبي في العام الماضي، و وافق الحزب الحاكم وكثير من حلفائه على المشروع فتم تمريره في المجلس الشعبي إلا أن وقوف أحزاب المعارضة بما فيها حزب المؤتمر الهندي ضده حالَ دون تمريره في مجلس الشيوخ الذي لايتمتع فيه الحزب الحاكم بالأغلبية التي تمكِّنها من تمرير مشروع القانون حتى يتحول قانونًا عامًّا في البلاد.

وأعرب كثير من أعضاء البرلمان الهندي من الهندوس والمسلمين عن مخاوفهم من أن هذا القانون لن يزيد المرأة المسلمة إلا معاناةً ومشاكلَ؛ وأن القصد من ورائه إضرار المسلمين بزج عدد أكبر منهم في السجون بِتُهَم واهية كما هو الملموس والمُشَاهَدُ في القضايا الأخرى. ولاشك أن هذا القانون يعدُّ تدخلًا صارخًا في قانون الأحوال الشخصية الإسلامي، ومناوئًا لروح دستور البلاد، الذي يخول لسكانها كلهم أن يتبعوا ما تمليه عليهم دياناتهم في الشؤون الدينية.

ويعاقب هذا القانونُ- فيما لو تم تمريره في مجلس الشيوخ- الزوجَ المسلمَ المتهمَ بذلك بالسجن لمدة ثلاث سنوات بينما يعاقب القانون الخاص بالهندوس الزوجَ فيما إذا طلق زوجته الهندوسية بالسجن لمدة سنةٍ واحدةٍ فحسب، فهل ترى لهذه الازدواجية من مبرر؟

والجدير بالذكر أن الحكومة القلقةَ على المرأة المسلمة المطلَّقةِ، والباكيةَ عليها لانراها تقلق يومًا على قتل مئات المسلمين في الاضطرابات الطائفية وبتُهَمٍ واهيةٍ من حيازة البقرة أو أكل لحومها أو حملها على أيدي حشود جنونية، ولايحرك ذلك ساكنا فيها؛ بل يقف بعض أعضائه بجانب المدانين في مثل هذه القضايا من قِبل المحاكم المحلية، ويتبجحون به.

والأغرب في الأمر أن الزوج مصيره السجن فيما لو ثبت تطليقه ثلاثًا في مجلس واحد، فَمَن لزوجته التي لم تُطَلَّق في نظر القانون ياترى؟ ومَن لأولاده وذريته الضعفاء الذين لايملكون حيلةً ولايهتدون سبيلًا إلى لقمة العيش لمدة ثلاث سنوات يقضيها راعي بيتهم وراء القضبان؟

[التحرير]

(تحريرًا في الساعة السابعة صباحًا من يوم الأحد: ١٩/ربيع الآخر١٤٤٠هـ= ٣٠/ديسمبر ٢٠١٨م)

رحلة العرب من إيجابيات إلى سلبيات

كان العرب الذين بُعِثَ فيهم رسولُ الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يمتازون منذ قديم وقبل أن تشرق عليهم شمس الإسلام بخصائص إنسانية عالية كانت تنقص الأممَ كلَّها على وجه الأرض، حتى صاروا فيها مضربَ المثل، وحتى كانت الأذهان تتبادر إليهم بمجرد ذكرها – الخصائص – لأنها كانت قد غدت شعارًا لهم ودثارًا ودلالةً مباشرةً على شخصيتهم، وكأنها كانت العنصرَ الخامسَ في تركيبتهم مُضافًا إلى العناصر الأربعة التي خُلِقَ منها البشرُ.

منها الكرم والقرى، والوفاء والمروءة، والرجولة والسماحة، وحسن الجوار، وما إلى ذلك.

وجاء الإسلام فصقل فيهم هذه الخصائصَ الحميدةَ، كما أحدث فيهم الخصالَ الأخرى الكثيرةَ التي افْتَقَدَها فيهم.. وهذه وتلكَ تفاعَلَتْ فيهم ونَمَتْ وبلغتِ المستوى الأعلى الذي لم يُدانِهِمْ فيه أحدٌ من البشر من بعدهم.

وبهذه وتلك نحت منهم النبيُّ المبعوث منهم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – نماذج بشرية متكاملة في جميع المزايا الإنسانية المطلوبة لدى خالق البشر، وارتضاهم الله عز وجل قدوةً لمن يأتي من بعدهم من الأجيال البشرية ليوم القيامة.

ولاستيفائهم الخصائصَ البشرية، ولكونهم مثلًا يُحْتَذَى لمن بعدهم، ولكونهم أساتذةً للعالم كله بعد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكونهم محسنين إلى البشر إحسانا يلي إحسانَ نبيهم إلى العالمين ويفوق جميعَ الإحسانات التي تَبَادَلَهَا البشرُ وسيتبادلها فيما بينه ليوم القيامة، أُشْرِبَ جميعُ من اهتدى بهديهم واتّبعهم بإحسان من بعدهم في قلبه الحبَّ لهم والإعجابَ بهم، والحرصَ البالغَ على الاقتداء بهم والتفانيَ في التحلّي بما كانوا يَتَحَلَّوْنَ به من الصفات والتخلّيَ عما كانوا يَتَخَلَّوْنَ عنه من السيئات والسلبيّات.

وإذا كان حبهم – الصحابة – للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، منقطعَ النظير في الكم والكيف وبجميع المقاييس، فإن حب التابعين وتابعي التابعين وأتباع أتباعهم و جميع من سيتبعونهم اتباعًا كاملًا صحيحًا ليوم الدين ينقطع نظيره بين جميع أنواع الحب وفصائله التي يتعاطاها وسيتعاطاها الجيل البشري فيما بينهم.

وتَحَوَّلَ هذا الحب عند اللاحقين من أبناء

الإسلام حبًّا لجميع العرب باعتبارهم أنجالَهم – الصحابة – تلاميذ مدرسة النبوة والمُخَاطَبِين المُبَاشِرِين بالوحي، المُكْرَمِين من الله ببعث خاتم النبيين منهم، ومُبَلِّغِي الرسالة الإلهيّة الأخيرة الخالدة إلى العالم كله – .

وقد ظلّ العربُ عبر التاريخ يحتفظون بخصائصهم العربية والإسلامية رغم اختلاطهم بأمم العالم واحتكاكهم بالعادات والأعراف والديانات والرُّؤَىٰ والأفكار الأجنبية العجمية.

وظلّوا لذلك كله مَهْوَىٰ أفئدة المسلمين في العالم كله، وظل المسلمون غيرُ العرب على علاتهم وعلى اختلاف مذاهبهم يُفَرِّغُون لهم شعابًا واسعةً من قلوبهم خَصَّصُوها لحبهم وحدهم.

وكلما كان المسلم عاملًا بدينه، مُحِبًّا لرسوله، عارفًا بتأريخه، مُطَّلِعًا على الثقافة العربية والحضارة الإسلامية، كان أكثرَ حُبًّا للعرب ومُعْجَبًا بهم وبدورهم في تأريخ الإسلام.

* * *

ومهما كان الأكرم عند الله هو الأتقى، عربيًّا كان أو عجميًّا، ومهما كان النبي – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – صَرَّحَ بأنه لا فضلَ لعربي على عجميّ، ولا لأسود على أبيض، إلّا بالتقوى والعمل الصالح، وأن الناس سواسية كأشنان المشط، وكل الناس من آدم وآدم من تراب؛ ومهما كان إيماننا بذلك قويًّا، فإن العرب بالمجموع سيظلون محبوبين لدى المسلمين من العجم؛ لأنهم مَادَّةُ الإسلام، كما صَرَّحَ بذلك حكيمُ الأمة وعبقريُّ الإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولأن الدعوة الإسلامية بلغتهم نَزَلَتْ، وبنبيهم بَلَغَتْ، وسفينتَها بِمجْدَافِهِم سارت في محيط الكون، وبركاتها بجهودهم وجهادهم وتضحياتهم العديمة النظير عَمَّتِ الكوكبَ الأرضيَّ.

وبعد ما فاض البترول في أرضهم في التأريخ الحديث كَثُرَ احتكاكُ أمم العالم بهم كثرةً لا يوجد نظيرُها في التأريخ الماضي، وانجذبت إليهم الأيدي العاملة من أقطار العالم انجذابَ القِطَعِ الحديدية إلى المغناطيس.. وكذلك تَوَافَدَتْ إليهم أفواجًا أبناءُ الأمم – التي يُشَكِّل العجمُ فيها أكبرَ نسبة – حملت إليهم معها عاداتها وتقاليدها واتجاهاتها وأفكارها، وثقافاتها وحضاراتها التي خيرُها أَقَلُّ حتمًا من شرّها وضرُّها أكثرُ من نفعها؛ بل في أغلب الأحايين تكون هي مجموعةَ شرور و ويلات لا أولَ لها ولا آخرَ، وقد تركت هذه كلُّها آثارًا سلبيةً سيئةً للغاية على بيوت العرب وأسواقهم وشوارعهم ومجتمعاتهم، وبدأت تُغَيِّر الشيءَ الكثيرَ من البنية التحتية من أخلاقهم العربية الأصيلة، وصفاتهم الإسلامية التي تُشَكِّل «مُمَيِّزَاتٍ عربيّةً» لو تجردوا منها لعادوا «عَرَبًا» بالاسم دون الحقيقة.

وظهرت أخيرا دراسات عديدة في العالم العربي عَبْرَ الصحف والمجلات والدوريات المتخصصة بأقلام غَيُورَة عربية وأخرى إسلامية غير عربية تستقصي الآثارَ السلبيّةَ الهائلةَ البعيدةَ المدى،

الخطيرةَ الغاية للأيدي الأجنبية العاملة في البلاد العربية بما فيها العمال بأنواعهم والمربيات والخادمات والخدم والسائقون؛ حيث نقلت الأيدي العاملة إلى العالم العربي عفونتَها الحضارية، وخباثتها الثقافيّة، ومفاسدها الاجتماعيّة، ومساوئها الدينية، وآفاتها الفكرية، وشرورها الأخلاقية، وأمراضها العقلية، وعلاتها السياسية، وصراعاتها الحزبية، وعصبياتها المنتنة. وقد أشارت الدراسات كلها إلى الأخطار العميقة التي أَفْرَزَتْها وتُفْرِزُها هذه كلُّها في الربوع العربيّة، والتي تُهَدِّد كيانَها التربوي والعقدي والاجتماعي تهديدًا صارخًا، ودعت إلى اتخاذ التدابير الوقائية اللازمة لمواجهتها بصورة تُعِين العربَ على حفاظهم على شخصيتهم العربية الإسلامية التي هي أَعَزُّ لديهم طبعًا من كل شيء، وبالتالي تصونهم من «الميوعة» الحضارية والثقافية والاجتماعية والفكرية، ومن الذوبان في «قوالب فكرية» أجنبية لا تتفق مع ما يتمتعون –العرب– به من الخصائص الإنسانية النبيلة. وعلى رأس هذه التدابير هو الاكتفاءُ الذاتي في جميع مجالات العمل، والاعتماد على السواعد والعقول العربية، وتطبيق المبدإ القاضي بأنه «لن يَحُكَّ جلدَك مثلُ ظفرك».. وذلك عن طريق الجهود الحثيثة السريعة الجادة على تخريج «كوادر عربية» و«نماذج وطنية» من أبناء التراب العربي الإسلامي.

وكان بالإمكان أن تكون المصيبةُ أَهْوَنَ عليهم لو كانوا قد أعملوا في هذا الخصوص بعضَ ما يتمتعون به من الغيرة الإسلامية والنخوة العربية، وآثَرُوا الأيديَ العاملةَ الإسلاميةَ على غيرها، وبذلك يكونون قد كسبوا الحسنيين: ١- خدمة الإسلامة والمسلمين ٢- والتوقي لحد كبير الآفاتِ الكثيرةَ الأنواع التي تأتي بها الأيدي العاملة غير الإسلامية؛ لأن المسلمين العجمَ على كل حال يلتقون مع العرب في كثير من خصائصهم الحضارية والثقافية ويشاطرونهم كليًّا العقيدةَ، إلى جانب ما يحملونه من الحب الشديد لهم ولجميع ما يتمتعون به من المُمَيِّزَات، ومن الحرص الزائد على استقائها ليحملوها حيةً طازجةً إلى أوطانهم التي تَسَرَّبَ فيها إلى الإسلام كثيرٌ من «الشوائب المحليّة» التي ربّما نَشَأَ من جَرَّائِها «إسلام» يَتَجَرَّدُ من كثير من «مواصفات» الإسلام العربي المحمدي الأصيل.

ولكنهم – العرب – لم يُفَرِّقُوا في ذلك بين المسلمين وغير المسلمين؛ بل سمعتُ أن بعضهم الذي ضعفت فيه الغيرة العربية الإسلامية يُفَضِّل غيرَ المسلمين على المسلمين بحجة أن المسلمين «يضيعون» كثيرًا من أوقات الدوام في الصلوات وغيرها من العبادات، كما أنهم يحترزون من كثير من «الأعمال» التي يرونها تخالف المروءةَ أو الدينَ وبذلك فهم مَضْيَعَةٌ للشيء الكثير من مصالحه!!.

على حين أن التجارب الميدانية تُؤَكِّد أنه لو كانت هناك بلاد شاسعة لغير المسلمين، وفاضت فيها الثروات، واحتاجت هي إلى الأيدي العاملة بهذا القدر الذي تتوافد به أفواجًا إلى البلاد العربية.. لتضايقت هي بالأيدي العاملة الإسلامية ولو بقدر

الملح في الطعام وربما أوصدت الأبوابَ في وجهها، وإنما فتحتها على مصراعيها لأبناء دياناتها وأفراخ حضاراتها، لعقليتها الضيقة الناشئة من العصبية الحاقدة السوداء التي تحملها هي نحوَ الإسلام وأبنائه.

ولكن العرب من أجل «سماحتهم العربية» يُرَحِّبُون بأبناء جميع الديانات دون أن يُفَرِّقُوا بينهم وبين أبناء ديانتهم ودون أن يُفَرِّقُوا بين المسلمين وبين الذين يذبحونهم في بلادهم، ويضايقونهم في العمل بالإسلام، ويطاردونهم، ويُشَرِّدُونهم ويُعَذِّبُونهم تعذيبًا تَقْشَعِرُّ منه جلود السامع لقصته؛ بل وقد يَنْفُونَهم من أوطانهم من أجل ذنبهم الوحيد، وهو أنهم يقولون: «لا إله إلا الله» ولا معبود سواه.

* * *

هذا، والمسلمُ غير العربي يحضر البلادَ العربيةَ اليوم سواء أجاء زائرًا لها أو عاملًا فيها لكسب لقمة العيش، وهو يحمل في مخيلته للعربي صورةً مشرقةً كأجمل ما تكون نحتها ما سمع عنه منذ أن فتح عينيه على الوجود، وما قرأ وما علم من أسبقيته في الإسلام وجهود آبائه، وجهادهم في سبيل تثبيت جذوره في الجزيرة العربية وفي الربوع العربية ثم تبليغه أرجاءَ دنيا الله كلها، وماعاشه منذ طفولته من الحب البالغ له والحنين الزائد إليه وإلى بلاده، ولا سيما ما أُخْبِرَ به من كرمه المضروب به المثلُ، وأخلاقه الحلوة كالعَسَل، وأريحيته الواسعة سِعَةَ الحرمين بعد توسعتها الحديثة، وصفاته الغالية التي اصطفاه الله من أجلها لأن يُكْرِمَه ببعث النبي الخاتم من قومه وبلغته وفي أرضه.

هذا المسلم الوافد من خارج البلاد العربية إلى أخيه العربي الذي قد يحبه أكثرَ من حبه لأخيه الذي وَلَدَتْه أُمُّه؛ لأن آصرة الدين والعقيدة والعاطفة المتولدة منها أقوى من آصرة اللحم والدم، يتعامل معه – مع أخيه العربي – في مصنعه أو في متجره أو في بيته أو في الشوارع والأسواق أو في المؤسسات التجارية أو في المصالح الحكومية أو في الإدارات الرسمية أو في المدارس والجامعات أو في المقاهي والمطاعم والفنادق أو في الصحف والمجلات والإذاعات، يتعامل معه وهو يَسْتَحْضِر في مُخَيِّلَته تلك الصورةَ الرائعةَ له، ويحاول أن يقارن بينها وبينه، فقد يُصَاب بصدمة عنيفة في قلبه تكاد تُشَلِّلُ عقلَه وتُطَيِّرَ لُبَّه، وتَجْرَحُ مَشَاعِرَه الدينيةَ التي رَبَّاهَا من صغره كمايُرَبِّي أحدُنا فُلُوَّه، عندما يراه يسيء معه المعاملةَ كأبناء الديانات الأخرى المعادية، ويراه يَكْذب ويُنَافِق، ويُرَاوِغ ويُخْلِف الوعدَ، ويَغُشُّ ويتعصب، ويُغْلِظُ القولَ ويُفَحِّشُه، ويقسو على الغريب، ويَتَجَبَّر ويَتَبَاهَىٰ ويتكاثر مثلَ العجم ومثلَ الوثني أو اليهودي أو البوذي أو المسيحي، أو كأبناء أية ديانة غير الإسلام، أو أبناء أي وطن غير الوطن العربي.

إن هذا المسلم الوافد يَتَقَطَّع حزنًا إذا وجد العربيَّ يصنع هذه المعاملةَ حتى مع غير المسلم فضلًا مع مثله المسلم.. ويذوي كمدًا، إذا وجده يصنعها مع المسلم الوافد، ويشعر بالألم المُمِضّ

الـذي يـشعر بـه الإنـسانُ إذا أصـابه ظلـمٌ مـن ذوي قرباه، وظلمُ ذوي القربى أَشَدُّ وقعًا وإيلامًا، كما قال الشاعر العربي الجاهلي الحكيم:

وظُلْمُ ذَوِي الْقُرْبَىٰ أَشَدُّ مَضَاضَةً
عَلَى النَّفْسِ مِنْ وَقْعِ الْحُسَامِ الْمُهَنَّدِ

* * *

ومثل هذه المعاملة لا تنطبق على العربي إلا كما تنطبق ملابسُ «القصير» على «الطويل» وتُسْتَقْبَحُ كما يُسْتَقْبَحُ التَّصَابِي من الشيخ والتأنّث من الرجل.

وإنما طرأ هذا التغيرُ على هذا العربي من كثرة اختلاطه مع غير العربي ولا سيما غير المسلم و من الكثرة الكاثرة من الأيدي العاملة الأجنبية التي فتح لها بوابةَ وطنه وبابَ بيته، والتي بدأت تُفْسِد عليه أَعَزَّ ما لديـه مـن الـصفات العربيـة والأخـلاق الإسلامية والمواريث الدينية.

وإذا كـان العـربيُّ في بدايـة مـشواره التقـدمي الحـديث لجهلـة بـالعلم والـصناعة والتكنولوجيـا محتاجًا إلى الأيدي الأجنبية، أو العقول غير العربية، فإنه ليس له عذرٌ بعد أن بَعُدَ العهدُ بالمشوار وطال زمن الرفاهية والازدهار أن يبقى محتاجًا إليها.

عليه أن يُسْرِع إلى شيء من التَّمَعْدُد – أي كونه مثـل معـد بـن عـدنان الـذي كـان يتبنّـى التخـشن والتجلّـد والرجوليّـة في حياتـه - والتخـشن وإلى الاعتماد على ذاته واستخدام عقله وساعديه دونما تأخير، مستعبرًا من بعض الأقوام التي ليست لديها كِسْرَةُ خبز تكفي شعوبَها الْمُتَضَوِّرَةَ جوعًا، وقطعةُ ثـوب تُغَطِّـي جـسومَها العاريـةَ، وعُلْبَـةُ دواءٍ تَفِـي بحاجات أفواج المرضى في بلادها؛ ولكنها تكتفي بـذاتها في كثير مـن شـؤون دنياهـا حتـى في صناعة الأقـمار الـصناعيّة وكثـير مـن الأسـلحة النوويّـة، وتفرض الحظرَ الشديدَ على المصنوعات الأجنبية حتـى يُـضْطَرَّ المواطنـون إلى اسـتخدام الْمُنْتَجَـات الوطنيّة وحدَها، بدءًا بالإبرة وانتهاء بجهاز التلفاز والكـاميرا والراديـو والـساعات والحاسـوبات والتـابلات (الأجهـزة اللوحيـة) والحاسـوبات المحمولة وما إليها. وأما الأيدي العاملة الأجنبية فإنها شيء لم تعرفه لغتها الوطنية وما خطر ببالها قط.

وإذا كـان لا بـد للعـربي مـن الأيـدي العاملـة الأجنبية ففي أبناء الإسلام كفايةٌ وغَنَاءٌ لمن يحمل ذرةً من الغيرة الدينية.. وإذا اضطر إلى غير المسلم فعليـــه أن يحـــترز مـــن «الإشرف» و«الإسراف» و«التبذير» وأن لا يتجاوز حد «الاعتدال» بحيث يكتفي بالقدر المحتاج إليه.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة المائدة:٣).

ولا يجوز لـه أبدًا مهما كـان عـذره أن تكـون في بيتـه مربيـة أجنبيـة مـسيحية وهندوسـية بوذيـة أو ملحدة، فإنها أضرُّ على بيته من الأفعى الخبيثة، وكل ذلك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

نور عالم خليل الأميني
nooralamamini@gmail.com

(تحريرًا في الساعة ١٢ من نهار يوم الأحد: ٢٢/ربيع الآخر ١٤٤٠هـ الموافق ٣٠/ديسمبر ٢٠١٨م).

من ظلال التفسير

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)
تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري

الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝

فائدة:

قدم وفد محترم مكون من ستين من نصارى نجران على النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ-، وكان يحتل ثلاثة منهم ميزة دينية بارزة، وهم عبد المسيح عاقب -بصفته رئيسًا وأميرًا لهم-، و أيهم السيد رأيًا وتدبيرًا- وأبو حارثة بن علقمة بصفته أكبر أحبارهم ورهبانهم، والثالث أصله من قبيلة عربية شهيرة هي بكر بن وائل، ثم اعتنق النصرانية ورسخت قدمه فيها. وكان الملوك الرومان يولونه احترامًا وتكريمًا كبيرَين نظرًا إلى صلابته في الدين وشرفه ومجده وعلاوةً على تقديم الدعم المالي له بنوا له بيعة عملاقة، ونصبوه في أعلى المناصب والوظائف الدينية، قدم هذا الوفد إلى النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- بعزة وكبرياء، وناظروا النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- في قضايا خلافية حكى تفاصيلها محمد بن إسحاق في «سيرته». نزلت أوائل سورة آل عمران حتى ثمانين أوتسعين آية منها في هذه القصة. ومن أسس عقائد النصارى وحجر زاويتها أن المسيح هو الله أو ابنه أو واحد من الأقانيم الثلاثة. وماتضمنته هذه الآية من هذه السورة من الادعاء بتوحيد الله الخالص وما سِيق فيها من الصفات: «الحي» و «القيوم» يبطل مزاعم النصارى هذه بكل صراحة. ونبههم النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- خلال حديثه معهم على ذلك وقال لهم: ألا تعلمون أن الله حي لايموت، وهو الذي خلق الخلق كله، وأخرج لهم ما يعينهم على حياتهم، وبقائهم من الأسباب، وهو قيوم عليهم بقدرته الكاملة، وعلى العكس من ذلك فإن عيسى ابن مريم لا بد وأن يذوق الموت والفناء، ولا يخفى أن الذي لايتمكن من الإبقاء على نفسه و حياته والحفاظ عليها من الفناء أحرى بالعجز عن الإبقاء على حياة غيره من المخلوقات، وأقرت النصارى بذلك. ولعلهم اغتنموا أنه - محمدا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- يتساءل عن إتيان الفناء على عيسى ابن مريم وفق عقيدته- وهو

أنه لابد أن يطرأ عليه الفناء – فلو أجابوه بالنفي فإنه – محمدًا ﷺ– يفحمنا وفق عقيدتنا – وهو أن عيسى ابن مريم قد مات – أكثر وأوضح. فلم يروا في خوض النقاش اللفظي مصلحة وفائدة لهم. وربما كانوا من الفِرَق التي تذهب مذهب أهل الإسلام من إنكار قتل عيسى وصلبه على الإطلاق، وتقول برفع جسده إلى السماء. كما صرح الحافظ ابن تيمية في كتاب: «الجواب الصحيح» وصاحب «الفارق بين المخلوق والخالق» بأن معظم نصارى الشام ومصر على هذه العقيدة. ثم جاء بوليس بعقيدة صلب المسيح، وانتقلت هذه العقيدة من أوربا إلى مصر والشام وغيرها.

وعلى كل فإن قوله –صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: إن عيسى يأتي عليه الفناء بدلًا من قوله: «إن عيسى قد أتى عليه الفناء»، رغم أن الكلمة الأخيرة أوضح دلالة على رد ألوهية المسيح وأقرب إفحامًا لقائليها – يوحي إلى أنه –صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كره إطلاق الموت على عيسى عليه السلام قبل أن يطرأ عليه، حتى في سياق الرد والإفحام.

نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾

فائدة:

قوله: (بِالحَقِّ) أي أن القرآن الكريم نزل متلبسًا بالحق والعدل مما يقتضيه الحكمة.

مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾

فائدة:

أي أن القرآن الكريم يصدِّق ما بين يديه من الكتب. والكتب السابقة – من التوراة والإنجيل– ترشد إلى القرآن الكريم وإلى من نزل عليه، وأرشدت الناس إلى التوجيهات والأحكام الملائمة لعصر نزولها. فكأنه دل بذلك على أن عقيدة ألوهية المسيح أو بُنُوته لم ينزل بها كتاب سماوي؛ فإن الكتب كلها تتفق على أصول الدين، ومبادئه، ولم يلقن واحد منها عقائد الشرك.

فائدة:

أي أنزل في كل زمان ما يناسبه مما يفرق بين الحق والباطل من الكتب السماوية، ومعجزات الأنبياء، كما أشار إلى أن القرآن الكريم يحكم فيما يختلف فيه اليهود والنصارى من الأحكام والقضايا على مر الدهور.

فائدة:

قوله (ذُوانتِقَامٍ):أي لايترك أمثال هؤلاء المجرمين من غير عقاب، ولايسعهم أن يفوتوا قدرته فرارًا. وفيه إشارة لطيفة إلى إبطال ألوهية

المسيح، فإن القدرة والسلطة المطلقة ليست إلا لله تعالى، ولا يتمتع بها المسيح -عليه السلام-، بل لم يسعه أن ينقذ نفسه من مخالب أعدائه الظالمين رغم التضرع والإلحاح الشديدَين فضلًا عن أن ينقذ غيره ويحفظه كما يراه النصارى، فأنى يكون إلهًا أو ابنه؟ ولاشك أن وصف المخلوق العاجز بأنه ابن الله افتراء على الأب وابنه، والعياذ بالله منه.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾

فائدة:

أي كما أن سلطته وقدرته مطلقة كذلك علمه محيط بكل شيء، ولايعزب عنه شيء- صغيرًا أو كبيرًا في الكون لحظة من اللحظات. و هو مطلع على كل مجرم وبريء، ومدى جريمته ونوعها. فأنى للمجرمين أن يفوتوه هربًا؟ ونبّه بذلك على أن المسيح ليس إلهًا، إذ لم يكن يتصف بهذا العلم المحيط، ولا يعلم ما علمه الله تعالى، كما اعترف به نصارى نجران، حين تقاولوا مع النبي -ﷺ-، ولازالت الأناجيل الموجودة الآن على ذلك.

هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾

فائدة:

أي صور كيف شاء في أرحام أمهاتكم من ذكر أو أنثى، حسن الصورة وقبيحها، وفق علمه وحكمته، وبكمال قدرته، ألا ترى قطرة من الماء كم شهدت من تقلبات وتحولات بأمره سبحانه تعالى، ثم سوَّاه رجلًا. فهل يتطرق الخلل والنقص إلى علم من كان على هذا المبلغ من القدرة والخلق؟ وهل يسعنا أن نَصِفَ من عاش في ظلمات رحم أمه ثم خرج منه، يأكل ويشرب، ويتغوط دأب الصبيان العاديين بأنه ابن أوحفيد لله تعالى؟ قال تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ اَفْوَاهِهِمْ اِنْ يَّقُوْلُوْنَ اِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:٥] وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيْ يُصَوِّرُكُمْ فِي الْاَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران:٦].

(يُصَوِّرُكُمْ فِي الْاَرْحَامِ) كشف لشبهة النصارى، حيث قالوا: إذا لم يكن للمسيح أب كالعادة، فمن ذا الذي يكون له أبًا غير الله تعالى؟ أي أن الله تعالى قادر على أن يصور البشر في الأرحام كيف يشاء، سواء بالتقاء الوالدين بعضهما ببعض، أو بما تحمل الأم من القوة المنفعلة ،ولذا أعقبه بقوله: (الْعَزِيْزُ)، أي عظيم غالب لايوازيه شيء. (الْحَكِيْمُ) لايأتي إلا بما هو أنسب لكل مكان. فخلق حواء من غير أم، وخلق المسيح من غير أب، وخلق آدم من غير أب ولا أم، فمن ذا يحيط بقدرته علمًا؟

هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا

ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧

فائدة:

أعيت الأدلة والبراهين نصارى نجران فعارضوا الرسول –صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ– بقوله: «أنت تقول: عيسى كلمة الله، وروح منه، وكفانا ذلك دليلًا على ما ذهبنا إليه. فرد عليه ردًّا مبدئيًا عامًا تحقيقيًا، يجتث جذور آلاف الشبهات والمناقشات، إذا ما تأمل المرء وأدركه.

فاعلم أن القرآن الكريم وغيره من الكتب الإلهية كلها تتضمن نوعين من الآيات:

النوع الأول: ما هو مقطوع ومعلوم المراد، سواء بالنظر إلى اللغة والإعراب، فالنص لايشوبه غموض أو إبهام، أو إجمال ، أو أن النص لا يحتمل أكثر من معنى، ولا أن المعنى المتبادر إليه الذهن يعارض القواعد المسلمة العامة،أو بالنظر إلى النص وإن كان يحتمل أكثر من معنى لغويًا، إلا أن النصوص الشرعية المستفيضة أو الإجماع المعصوم أو مبادئ الدين العامة المسلمة قطعت بأن المراد هو هذا المعنى دون غيره، ويطلق على أمثال هذه الآيات «المحكمات»، وهذه الآيات – في الواقع – هي توجيهات الكتاب وأصل أصولها وعمادها.

النوع الثاني: من الآيات يطلق عليها: «المتشابهات»، أي ما تسرب الاشتباه والالتباس في تحديد معناه. والطريق الأمثل في مثل هذه الآيات ردها إلى النوع الأول من الآيات، ثم النظر فيها ونفي المعنى الذي يعارضها نفيًا قاطعًا، وحملها على المعنى الذي لا يعارض المحكمات من الآيات، فإن عجزنا عن تحديد المعنى الذي أراده المتكلم، بعد أن استقصينا الجهود، واجتهدنا آراءنا، فليس لنا أن نتجاوزه قائلين: قد أحطنا بكل شيء علمًا، وإنما الواجب علينا أن نصبّه في خانة الحقائق التي تخفى علينا لقلة علمنا وقصور استعدادنا. وحذارِ أن نؤولها تأويلًا يعارض المبادئ الدينية المسلمة، والآيات المحكمات من الكتاب. لنضرب لك مثلًا على ذلك: صرح القرآن الكريم – فيما يخص المسيح ابن مريم عليه السلام– بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:٥٩]، أو بقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيْسٰى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَه مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران:٥٩]، أو بقوله: ﴿ذٰلِكَ عِيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِيْ فِيْهِ يَمْتَرُوْنَ مَا كَانَ للهِ اَنْ يَّتَّخِذَ مِنْ وَّلَدٍ سُبْحٰنَهٗ﴾ [مريم:٣٤-٣٥]

ورد ألوهيته وبنوته في غير آية، فلوأغمض المرء عينيه عن هذه الآيات كلها، وتشبث بقوله:

﴿كَلِمَتُهٗ، اَلْقٰهَا اِلٰى مَرْيَمَ وَرُوْحٌ مِّنْهُ﴾، ونحوه من الآيات المتشابهات، وصرف عن معناها الذي ينسجم مع المحكمات، وحملها على ما ينافي التصريحات القرآنية العامة المتواترة، هل كان ذلك إلا زيغًا وإلحادًا. ويحرص بعض قساة القلوب على أن يضلوا الناس بهذه المغالطة، كما يحرص بعض ضعاف العقيدة والإيمان على أن يحملوا هذه المتشابهات معاني من عند أنفسهم بصورة أو أخرى، في حين لايعلم معناه الحق القاطع إلا الله تعالى، اللّهم إلا أن يُطلع سبحانه من يشاء من عباده على شيء من ذلك، وأما الراسخون في العلم فيعلمون أنها – المتشابهات والمحكمات – الحق، ويؤمنون بأن النوعين من الآيات مصدرهما واحد، لاتحتمل التناقض و التهافت. فيردون المتشابهات إلى المحكمات منها، ويحملونها عليها. ويفوضون إلى الله تعالى ما يتعذر فهمه عليهم قائلين: الله أعلم بمراده بذلك. ولايهمُّنا إلا الإيمان به.

تنبيه:

يرى هذا العبد أن معنى هذه الآية أشبه شيء بمعنى آية سورة الحج وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُوْلٍ وَّلَا نَبِيٍّ اِلَّا اِذَا تَمَنّٰى اَلْقَى الشَّيْطٰنُ فِيْ اُمْنِيَّتِهٖ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ اٰيٰتِهٖ وَ اللهُ عَلِيْمٌ حَكِيْمٌ﴾ [الحج:٥٢]، وسيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى.

رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾

فائدة:

أي أن الراسخين في العلم لا يغترون بكمال علمهم، وقوة إيمانهم، ولايطمئنون إليه، وإنما يطلبون من الله تعالى المزيد من الاستقامة والفضل والعناية بصورة مستمرة، مخافة أن يضيع ما كسبوه من الخيرات أو تزيغ القلوب بعد ما اهتدت ورشدت. وري عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كان يكثر من قوله: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»(١).

رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾

فائدة:

أي لابد وأن يأتي اليوم الذي يحكم الله فيه فيما يختلف فيه هؤلاء الزائغون قضاء واضحًا قاطعًا، فيجزي كل جانٍ بما كسب من الزيغ والعناد، وخوفنا من ذلك يحملنا على التبرئ من طريقتهم وسلوكهم. ونطلب منك يا الله، الرحمة والاستقامة،وإن سلوكنا لغير سبيل الزائغين ليس لفساد نية أو هوى في النفوس، وإنما المقصود الفلاح الأخروي.

---

(١) رواه الترمذي في «سنه» برقم [٢١٤٠].

الصبر زمن الفتن

بقلم: **الأستاذ محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم**

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣].

وقال عزَّ وجلَّ:- ﴿وَبَشِّرِ الصَّٰبِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

فالله- سبحانه وتعالى- يجزي المؤمن على صبره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّٰحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٩-١١١]، فأخبرسبحانه أنه جزاهم على صبرهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان:٢٠].

أي: أتصبرون على البلاء، فقد عرفتم ما وجد الصابرون، فقرن الله - سبحانه- الفتنة بالصبر ها هنا، وفي قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَٰهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل:١١٠].

عن أُسيد بن حُضَير -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن رجلًا أتى النبيَّ -ﷺ- فقال: يا رسول الله، استعملتَ فلانًا ولم تستعملني، فقال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إنكم سترون بعدي أثْرة - وفي لفظ: ستلقون بعدي أثرة- فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»[١] وعن أمير المؤمنين معاوية -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: سمعتُ النبي -ﷺ- يقول: «لم يبقَ من الدنيا إلا بلاء وفتنة»[٢].

وقد جعل النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الصبر أوسع العطاء، فقال كما في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «وما أُعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر»[٣]، وذلك أن الصبر لا يعقبه إلا السعة واليسر، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥-٦]؛ ولذا قال عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «أدركنا خير عيشنا بالصبر».

أَمَا والذي لا خُلْدَ إلا لوجهه
ومن ليس في العز المنيع له كفو

لئن كان بد الصبر مُرًّا مذاقُهُ
لقد يُجتنى من غِبِّه الثمرُ الحلو

وعن المقداد بن الأسود -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: أيْمُ الله، لقد سمعت رسول الله-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: «إن السعيد لَمَنْ جُنِّبَ الفتن، إن السعيد لَمَنْ جُنِّبَ الفتن، إن السعيد لَمَنْ جُنِّبَ الفتن، ولَمَنْ ابتُلِيَ فصبر، فَوَاهًا»[٤].

وعن أبي ذر-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال لي رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «يا أبا ذر» قلت: لبيك يا

رسول الله وسعديك -فذكر الحديث- قال فيه: «كيف أنت إذا أصاب الناسَ موتٌ يكون البيتُ فيه بالوصيف؟» - يعني: القبر- قلت: الله ورسوله أعلمُ، أو قال: ما خار الله لي ورسوله[٥]، قال: «عليك بالصبر» أو قال: «تصبر ...» الحديث[٦].

وفي رواية أن أبا ذر قال: ركب رسول الله - ﷺ- حمارًا، وأردفني خلفه وقال: «يا أبا ذر: أرأيت إن أصاب الناسَ جوعٌ شديد لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك، كيف تصنع؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «تعفف» قال: «يا أبا ذر: أرأيت إن أصاب الناس موت شديد يكون البيت فيه بالعبد -يعني: القبر- كيف تصنع؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «اصبر ...» الحديث[٧].

والمراد بالبيت المذكور في الروايتين: القبر، كما هو مصرَّح به في الحديث، وكما ذكره جمع من أهل العلم؛ كالخطابي[٨]، وابن الأثير[٩] وغيرهما.

وأما الوصيف: فهو العبد أو الخادم، والوصيفة: الأمة، يُريد أن الناس يُشغلون عن دفن موتاهم، وهذا يدل على أن الفتن تكثر، فتكثر القتلى، حتى إنه ليشتري موضع قبر يدفن فيه الميت بعبدٍ، من ضيق المكان عليهم، مبالغةً في كثرة وقوع الفتن، أو لاشتغال بعضهم ببعض، وبما حدث من الفتن لا يوجد من يحفر قبر ميت ويدفنه، إلا أن يعطى وصيفًا أو قيمته[١٠].

وعن أنس بن مالك -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «يأتي على الناس زمان، الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر»[١١].

قال الطيبي: «المعنى: كما لا يقدر القابض على الجمر أن يصبر لإحراق يده، كذلك المتدين يومئذٍ لا يقدر على ثباته على دينه لغلبة العصاة والمعاصي وانتشار الفسق وضعف الإيمان»[١٢].

وقال القاري: «الظاهر أن معنى الحديث: كما لا يمكن القبض على الجمرة إلا بصبر شديد وتحمُّل غلبة المشقة كذلك في ذلك الزمان، لا يتصور حفظ دينه ونور إيمانه إلاَّ بصبر عظيم». انتهى[١٣].

مقارنة الحِلْم والرفق، ومفارقة العجلة والطيش

عن أم المؤمنين عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»[١٤].

وعنها -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قالت: اسْتَأْذَنَ رَهْطٌ مِن الْيَهُودِ عَلَى النَّبِيِّ -ﷺ-، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ، فَقُلْتُ: بَلْ عَلَيْكُم السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحب الرِّفْقَ في الْأَمْرِ كلِّهِ»، قُلْتُ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ»[١٥].

وعن جرير -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: سمعت النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: «مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ»[١٦]. وعن ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ «إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الحِلْمُ[١٧] وَالْأَنَاةُ»[١٨].

وعن خباب بن الأرتِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ في ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فقلنا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو لنا؟ فَقَالَ: «قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ في الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ

ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَ اللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[١٩].

وعن أنس بن مالك -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «التَّأَنِّي مِنَ الله، وَالعَجَلَةُ مِنَ الشَّيطَان، وَمَا أَحَدٌ أَكْثَر مَعَاذِيرَ مِنَ الله، وَمَا مِنْ شَيءٍ أَحَبُّ إِلى الله مِنَ الحِلْمِ»[٢٠]. والعَجَلة: فعل الشيء قبل وقته اللائق به، وكانت العرب تَكْني العجلة أمَّ الندامات[٢١]. وقال عطاء بن أبي رباح -رحمه الله تعالى-: «ما أوى شيءٌ إلى شيءٍ أزين من حِلمٍ إلى علمٍ»[٢٢]. وقال وهب بن منبه - رحمه الله تعالى-: «الرفق ثِنْيُ الحِلم»[٢٣]. وقال حكيمُ العرب «أكثم بن صيفي»[٢٤]: «دِعامة العقل الحِلم، وجِماع الأمر الصبر»[٢٥]. وقال أمير المؤمنين عليٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: «إن أولَ ما عَوَّضَ الحليمَ مِن حِلمه أن الناسَ كلَّهم أعوانُه على الجاهل»[٢٦]. وقال أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: «لا يبلغُ العبدُ مبلغَ الرأي حتى يغلبَ حِلْمُه جهلَه، وصبرُه شهوتَه، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم»[٢٧]. وسأل -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عمرَو بنَ الأهتم: أيُّ الرجال أشجع؟ قال: «من رَدَّ جهلَه بحِلْمِه»، قال: فأي الرجال أسخى؟ قال: «من بذل دنياه لصالح دينه»[٢٨]. وقال معاوية -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- لرجلٍ شَهِدَ عنده بشهادةٍ: «كذبتَ»، فقال الأعرابي: «إن الكاذب لَلْمُتَزَمّـِلُ في ثيابك»، فقال معاوية -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: «هذا جزاء من يَعْجَل»[٢٩].

وقال الأوزاعي: «كان عمر بن عبد العزيز إذا أراد أن يعاقب رجلًا حبسه ثلاثًا، ثم عاقبه؛ كراهيةَ أن يعجل في أول غضبه»[٣٠]. وقال مُطَرِّف: «أتى على الناسِ زمانٌ خيرُهم في دينهم المتسارع، وسيأتي على الناس زمان خيرهم في دينهم المتأنِّي». قال علي بن عَثَّام في تفسيره: «كانوا مع رسول الله -ﷺ- وأصحابه إذا أُمروا بالشيء تسارعوا إليه، وأمَّا اليومَ فينبغي للمؤمن أن يتبين، فلا يُقدم إلا على ما يعرف»[٣١].

وقال محمَّد بن بشير:

قدِّر لِرجلك قبل الخطوِ موضعَها
فمن علا زَلَقًا عن غِرَّةٍ زَلَجا[٣٢]

أي: لا تأتِ أمرًا حتى تفكر في مغبته وعاقبته: فإن كان لك أقبلت عليه، وإن كان عليك كففتَ عنه.

وعن حفص بن غياث، قال: قلت لسفيانَ الثوريِّ: «يا أبا عبد الله، إن الناسَ قد أكثروا في المهدي، فما تقول فيه؟ قال: إن مَرَّ على بابك؛ فلا تكن منه في شيء، حتى يجتمع الناس عليه»[٣٣].

وقال عبد الله: «إنها ستكون هَنَاتٌ، وأمورٌ مشبهات، فعليك بالتؤدة، فتكون تابعًا في الخيرِ خيرٌ من أن تكون رأسًا في الشر»[٣٤].

وعن حذيفة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: «إياكم والفتنَ لا يشخص إليها أحد؛ فوالله، ما شخص فيها أحد، إلا نسفته، كما ينسف السيلُ الدِّمَن؛ إنها مُشَبَّهَةٌ مقبلةً، حتى يقولَ الجاهلُ: هذه تُشَبَّه؛ وتبيَّنُ مدبرةً؛ فإذا رأيتموها: فاجثموا في بيوتكم، وكسِّروا سيوفكم، وقطعوا أوتاركم»[٣٥]. وعنه -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنه ذكر فتنة، فقال: «تُشَبَّهُ مُقْبِلَةً، وتُبَيَّنُ مُدْبِرةً»[٣٦].

قال شمر: «معناه: أن الفتنة إذا أقبلت شَبَّهَت على القوم، وأرتهم أنهم على الحق؛ حتى يدخلوا فيها، ويركبوا منها ما لا يحل؛ فإذا أدبرت وانقضت بَانَ أمرها، فَعَلِمَ من دخل فيها أنه كان على الخطأ»[٣٧].

فلا تُخْدَعْ بأولِ ما تراه

فأولُ طالعٍ فجرٌ كذوبُ

وفي مثل هذا المعنى قال شبيب بن البرصاء:

تَبَينُّ أعجازُ[٣٨] الأمورِ مَواضيًا

وتُقْبِلُ أَشْباهًا عليكَ صُدُورُها[٣٩]

ومثله قول الشاعر:

تشابَهُ أعناقُ[٤٠] الأمورِ بواديًا

وتظهرُ في أعقابها حين تُدْبِرُ

ومثله قول قتيبة بن عمروٍ الأسدي:

يشكُّ عليك الأمرُ ما دام مقبلا

وتعرفُ ما فيه إذا هو أَدْبَرا

وقال الشاعر يذم قومًا:

ولا يتقونَ الشرَّ حتى يصيبَهم

ولا يعرفونَ الأمرَ إلا تدبرا

قال أبو حاتم محمَّد بن حبان البستي -رحمه الله تعالى-: «إن العاجل لا يكاد يلحق؛ كما أن الرافق لا يكاد يُسْبَق، والساكت لا يكاد يندم، ومن نطق لا يكاد يسلم، وإن العَجِل يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويحمد قبل أن يُجَرِّبَ، ويذم بعد ما يحمد، ويعزم قبل أن يفكر، ويمضي قبل أن يعزم، والعَجِلُ تصحبهُ الندامة، وتعتزله السلامة، وكانت العرب تَكْني العجلَةَ أمَّ الندامات»[٤١].

لا تَعْجَلَنَّ فَرُبَّمَا ... عَجِلَ الْفَتَى فِيمَا يَضُرُّهْ

وَلَرُبَّمَا كَرِهَ الْفَتَى ... أَمْرًا عَوَاقِبُهُ تَسُرُّهْ [٤٢]

وفي المثل: «إذا لم تستعجل؛ تَصِلْ».

وقال القُطامي:

قَدْ يُدْرِكُ المتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ

وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمستَعْجِلِ الزَّلَلُ

وربما فات بعض القومِ أمرهمُ

مع التأني وكان الرأيُ لو عَجِلُوا[٤٣]

وقال عمرو بن العاص لابنه عبد الله -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: «الخَرَقُ معاداةُ إمامِك، ومناوأةُ مَن يَقْدِرُ على ضررك»[٤٤].

وقال الحسن البصريّ -رحمه الله تعالى-: «إنما يُكَلَّمُ مؤمنٌ يُرجَى، أو جاهلٌ يُعَلَّم، فأما من وضع سيفه أو سوطه، وقال لك: اتقني اتقني! فما لك وله؟!»[٤٥].

وعن الشعبي قال: أغلظ رجلٌ لمعاوية، فقال: «أنهاك عن السلطان، فإن غَضبَه غضبُ الصبي، وأخذَهُ أخذُ الأسد»[٤٦].

فَائِدَةٌ

مَعْنَى قَوْلِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- في الرُّومِ: «إِنَّهُمْ لأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ»:

قال المستورِدُ القرشي عند عمرو بن العاص -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ» فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: أَبْصِرْ مَا تَقُولُ، قَالَ: أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-، قَالَ: «لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ؛ إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا-: إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ، وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ: وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ»[٤٧].

والشاهد قوله -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «إِنَّهُمْ لأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ»؛ «يعني: إذا ظهر تغير الحال، وظهرت الفتن؛ فإنهم يحلُمون، ولا يعجلون، ولا يغضبون؛ ليقُوا أصحابهم النصارى القتلَ، ويقوهم الفتنَ؛ لأنهم

يعلمون- أن الفتنة إذا ظهرت؛ فإنها ستأتي عليهم؛ فلأجل تلك الخصلة فيهم، بقوا أكثر الناس إلى قيام الساعة؛ ولهذا فإننا نعجب أن لا نأخذ بهذه الخصلة التي حمد بها عمرو بن العاص - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- الروم، وكانت فيهم تلك الخصلة الحميدة، ونحن أولى بكلِّ خَيْرٍ عند مَن هم سوانا»[٤٨].

الإمام ابن القيم يحذِّر من استفزاز البُداءات

فقد ندد - رحمه الله تعالى- بمن تستخفه البُداءات وعوارضُ الشبهات، فقال فيمن هذا شأنه: «... هذا دليلُ ضعفِ عقله ومعرفتِه؛ إذ تؤثر فيه البُداءات، ويُستفز بأوائل الأمور، بخلاف الثابت التام العاقل، فإنه لا تستفزه البُداءات، ولا تزعجه وتقلقه، فإن الباطل له دهشةٌ وروعة في أوله، فإذا ثبت له القلبُ، رُدَّ على عقبيه، والله يحب مَن عنده العلم والأناة، فلا يعجل؛ بل يثبت حتى يعلم، ويستيقنَ ما ورد عليه، ولا يعجل بأمرٍ مِن قبلِ استحكامه، فالعجلة والطيش من الشيطان، فمن ثبت عند صدمة البُداءات؛ استقبل أمره بعلم وحَزْم، ومن لم يثبت لها؛ استقبله بعجلةٍ وطيش، وعاقِبتُه الندامةُ، وعاقبةُ الأولِ حَمْدُ أمرِه، ولكن للأول آفة متى قُرِنت بالحزم والعزم نجا منها؛ وهي: الفَوْتُ، فإنه لا يُخاف من التثبت إلا الفَوْتُ، فإذا اقترن به العزم والحزم؛ تم أمره، ولهذا في الدعاء الذي رواه الإمام أحمد والنسائي عن النبي -ﷺ-: «اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ، والعَزِيْمَةَ عَلَى الرُّشْدِ»[٤٩].

وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح، وما أُتي العبدُ إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما، فما أُتي أحد إلا من باب العجلة والطيش، واستفزاز البداءات له، أو من باب التهاون والتماوت، وتضييع الفرصة بعد مُواتَاتِها[٥٠]، فإذا حصل الثبات أولًا، والعزيمة ثانيًا أفلح كل الفلاح، والله ولي التوفيق»[٥١]. اهـ.

والواقعة التالية تجسِّد لك سلوكَ الذي تستخفه بُداءاتُ الأمور، وتستفزه أوائلها، وسلوكَ الحليم الواثق الذي يصدر عن علم وبصيرة، وحزم وعزم:

فقد قال يُسَيْرُ بن جابر: «هاجت ريح حمراء بالكوفة، فجاء رجل ليس له هِجِّيرَى[٥٢] إلا: يا عبدالله بن مسعود جاءت الساعة، قال: فقعد، وكان متكئًا، فقال: إن الساعة لا تقوم حتى لا يُقْسَمَ ميراثٌ، ولا يُفْرَحَ بغنيمة، ثم قال بيده هكذا (ونحاها نحو الشام) فقال: عدوٌّ يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهلُ الإِسلام» الحديث[٥٣].

* * *

الهوامش:

(١) رواه البخاريّ (٧/ ٦٤٤- فتح) رقم (٤٣٣٠)، والأُثْرة: الانفراد بالشيء المشترك دون من يشركه فيه، وقيل: الشدة.

(٢) تقدم تخريجه ص (٩).

(٣) رواه البخاريّ (٢/ ١٥٢)، ومسلم باب (٤٢) رقم (١٢٤).

(٤) أخرجه أبو داود في الفتن والملاحم، باب النهي عن السعي في الفتن: (٤/ ٤٦٠)، رقم (٤٢٦٣)، وسكت عليه المنذري في «مختصر أبي داود»: (٦/ ١٤٨)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود»: (٣/ ٨٠٣). و«واهًا» كلمة تعني التلهف، أو يعبر بها عن الإعجاب بالشيء، فكأنه قال: ما أحسن وما أطيب من ابتلي بالفتن فصبر على البلاء!

(٥) أي: ما اختار الله لي ورسوله. «عون المعبود»: (١١/ ٣٤٢)، «بذل المجهود»: (١٧/ ١٦٦).

(٦) أخرجه أبو داود في الفتن والملاحم، باب في النهي عن السعي في الفتنة: (٤/٤٥٨، رقم ٤٢٦١)، وابن ماجه في الفتن، باب التثبت في الفتن: (٢/ ١٣٠٨، رقم ٣٩٥٨)، وصححه الألباني في «صحيح

أبي داود»: (٣/ ٨٠٣)، و«صحيح ابن ماجه»: (٢/٣٥٥).

(٧) رواه الإمام أحمد (٥/ ١٤٩) بهذا اللفظ، وهو بنحو لفظ أبي داود وابن ماجه المذكور قبله، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»: (٢/١٢٩٠)، رقم (٧٨١٩).

(٨) «معالم السنن» (٤/ ٤٥٨).

(٩) «جامع الأصول» (١٠/ ٨).

(١٠) نفس المصدر.

(١١) أخرجه الترمذي في الفتن، باب (٧٣): (٤/ ٢٥٦، رقم ٢٢٦٠) وهو حديث صحيح بشواهده كما قال الألباني في «الصحيحة»: (٩٥٧)، و «صحيح الترمذي»: (٢/ ٢٥٦).

(١٢) تحفة الأحوذي (٦/ ٥٣٩).

(١٣) نفس المصدر (٦/ ٥٣٩).

(١٤) أبو رواه مسلم (٢٥٩٤)، (١٦/ ١٤٦ - نووي).

(١٥) رواه البخاريّ (٦٩٢٧)، واللفظ له، ومسلم (٢١٦٥).

(١٦) رواه مسلم (٢٥٩٢)، (١٦/ ١٤٥ - نووي).

(١٧) الحِلم: ترك العجلة، وهو خلاف الطيش ونقيض السفه، وقال الراغب: «هو ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب»، «المفردات» ص (١٢٩).

(١٨) رواه مسلم في الإيمان (١٧) (٢٥).

(١٩) رواه البخاريّ (١٢/ ٣١٥، ٣١٦ - فتح).

(٢٠) عزاه الهيثمي إلى أبي يعلى؛ وقال: «رجاله رجال الصحيح». اهـ. من «مجمع الزوائد» (٨/ ١٩)، وله شاهد من حديث سهل بن سعد - رضي الله عنه -، رواه الترمذي (٢٠١٢).

(٢١) «روضة العقلاء»، ص (٢٨٨).

(٢٢) رواه الدارمي (٥٧٦)، (١/ ١٥٢).

(٢٣) الإحياء (٣/ ١٨٦)، الثِّنْيُ: الولد الثاني.

(٢٤) انظر: «الإصابة» (١/٢٠٩)، و«الأعلام» للزركلي (٢/ ٦).

(٢٥) «نفس المصدر» (٣/ ١٧٨).

(٢٦) السابق (٣/ ١٧٨).

(٢٧) السابق (٣/ ١٧٨).

(٢٨) السابق (٣/ ١٧٨).

(٢٩) «روضة العقلاء"، ص (٢٩٠).

(٣٠) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٣).

(٣١) «حليـة الأوليـاء» (٢/ ٢٠٩)، و«شـعب الإيـمان» (٢/ ٣٠٥)، واللفظ له.

(٣٢) الغِرَّة: الجهالة والغفلة. زَلَجَ: زلق. أي: من لم يأت أمره عن علم لم يُصِب بغيته.

(٣٣) حلية الأولياء (٧/ ٣١).

(٣٤) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٥/ ٣٤)، والهَنَاتُ: جمع هَنَة، تأنيث هَنٍ، وهو كناية عن كل اسم جنس، والمراد: شرورٌ، وفساد، وشدائد، وأمور عظام، وانظر: «النهاية» (٥/ ٢٧٩).

(٣٥) حلية الأولياء ١/ ٢٧٣.

(٣٦) «المصنف» لابن أبي شيبة ١٥/ ٢٠.

(٣٧) «لسان العرب» (١٣/ ٥٠٣، ٥٠٤).

(٣٨) أعجاز الأمور: أواخرها.

(٣٩) صدورها: أوائلها.

(٤٠) أعناق الأمور: أوائلها.

(٤١) انظر: «روضة العقلاء»، ص (٢١٦).

(٤٢) بصائر ذوي التمييز (٤/ ٢٤).

(٤٣) «العقد الفريد» (٣/ ٥٢).

(٤٤) «الإحياء» (٣/ ١٨٨).

(٤٥) انظر: «حلية الأولياء» (٢/ ٢٠٩)، و«التمهيد» لابن عبد البر (٢٣/ ٢٨٢)، و«جامع العلوم والحكم» ص (٣٢٣).

(٤٦) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ١٥٣).

(٤٧) رواه مسلم في «الفتن» (١٨/ ٢٢- نووي)، وحكى الأُبِّيُّ في «إكمال إكمال المُعْلِم» عن القرطبي قوله: «هذه الخلال الأربع الحميدة لعلها كانت في الروم التي أدرك، وأما اليوم فهم أنحس الخليقة، وعلى الضد من تلك الأوصاف»، وقال الأُبِّيُّ: «هو مدح لتلك الأوصاف، لا أنها مدحٌ لهم؛ من حيث اتصافهم بها، ويحتمل أنه إنما ذكرها من حيث إنها سبب كثرتهم، وإلا فهم على الضد كما ذكر، ولا سيما فيما ذكر من كَرِّهم بعد فرِّهم؛ فإنهم الآن ليسوا كذلك». اهـ (٧/ ٢٤٦).

(٤٨) الضوابط الشرعية لموقف المسلم من الفتن، للشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله تعالى-، ص (١٨، ١٩).

(٤٩) أخرجه من حديث شداد بن أوس - رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- الطبراني في «الكبير» (٧/ ٣٣٥، ٣٣٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٦٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٦/ ١٢٧)، وقال الألباني: «إسناده جيد، رجاله ثقات، وفي بعضهم خلاف لا يضر». اهـ. من «الصحيحة» رقم (٣٢٢٨)، وحسَّنه شعيب الأرناؤوط بطرقه كما في «الإحسان» (٥/ ٣١١، ٣١٢).

(٥٠) وفي هذا يقول الأعشى:

وربما فات قومًا جُلُّ أمرهمُ ... من التأني، وكان الحزمُ لو عجلوا

(٥١) «مفتاح دار السعادة»، ص (١٦٩، ١٧٠)، ط. دار الحديث، القاهرة ١٤١٤ هـ.

(٥٢) له «هِجِّيرَى»: أي شأنه ودأبه ذلك.

(٥٣) رواه مسلم، رقم (٢٨٩٩).

❋ ❋ ❋

من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ ديوبند

(الحلقة ٦٧)

بقلم: **الأستاذ/ سيد محبوب الرضوي الديوبندي -رحمه الله-**
(المتوفى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)
ترجمة وتعليق: **محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري(*)**

خدمات خريجي دارالعلوم في مجال التصنيف والتاليف:

من الحقائق الواضحة وضوح الشمس في رائعة النهار خدمات دارالعلوم في مجال التعليم والتدريس، واعتراف العالم بها. وأما ما قام به علماء ديوبند – بجانب خدماتهم في مجال التعليم والتدريس والوعظ والخطابة وغيرها من المجالات الدينية- من الأعمال الجليلة في مجال التصنيف والتأليف، فمما يعتز به لا مسلمو شبه القارة الهندية فقط؛ بل العالم الإسلامي كله. فلم يَدَعوا علمًا من العلوم الدينية إلا طرقوه بتصنيفهم وتأليفهم، من بين كتاب ضخم ورسائل صغيرة وكتيبات. وهذه الأعمال معظمها في اللغات: العربية والفارسية والأردية. وبجانب ذلك لهم أعمال دون ذلك في اللغات الأخرى. ولخدمات دارالعلوم/ ديوبند اتجاهان: اتجاه داخلي، يخص تدريس وتعليم الطلبة، والاتجاه الثاني: خارجي، يخص عامة المسلمين والبلاد. ومن أبرز مجالاته: التواصل مع الشعب المسلم، والوعظ والنصح والدعوة وإرشاد الأمة المسلمة في الشؤون الدينية، والتذكير والتزكية والتصنيف والتأليف. وما قامت به دارالعلوم على هذا المستوى من الخدمات الجليلة يعز مثيلها في تاريخ شبه القارة الهندية. ولنأخذ مجال التأليف وحده، فقام أحد أبنائها الكبار حكيم الأمة أشرف علي التهانوي (ت١٣٦٢هـ/١٩٤٣م) بتأليف نحو ألف كتاب بين صغير وكبير. و لم يَدَعْ حكيم الأمة التهانوي -رحمه الله- جانبًا من جوانب الحياة الدينية والإصلاحية لم يؤلف فيه شيئًا من الكتب، ولامثيل له في المصنفين الهنود بالنظر إلى كثرة أعماله ونفعها. وهل أحد له إلمام وولع بالدين يخفى عليه واحد من أعماله المعروفة المسمى «بهشتي زيور»- حلية الجنة.

ومما يمتاز به الشيخ التهانوي وغيره من مشايخ ديوبند أنهم لم يحفظوا حقوق أعمالهم العلمية؛ بل سبَّلوها لينتفع بها العامة. ولم يتوخَّ هؤلاء العظماء من وراء ذلك التجارةَ أو النفعَ الماديَّ، وإنما وضعوا نُصب أعينهم النفعَ والإصلاح الديني.

ويرجع هذا التراث العلمي الكتابي لعلماء ديوبند – كما يرى أحد علماء الشام الأجلاء: الشيخ عبد الفتاح أبوغدة – إلى عمق العلم، وسعة المطالعة، إضافة إلى التقوى والصلاح و الروحانية

(*) أستاذ التفسير واللغة العربية وآدابها بالجامعة.

والاستغراق في العلم. واعترف الشيخ أبو غدة[1] بأهمية أعمال علماء ديوبند وأعرب عن رغبته في نقل أعمالهم الأردية والفارسية إلى اللغة العربية حتى يتسنى للعالم العربي الاستفادة منها. قال الشيخ في انطباعاته عن الجامعة:

«وفاتني أن أذكر هنا وأنا بين الأيادي التي قام بها علماء هذا المعهد الكبير الجليل العامر بأساطين العلم والدين والتقوى أن لنا طَلِبَةً وإن تطاولتُ قلتُ: إن لنا عليهم حقًا، وذلك الحق هو أن يقوموا لنا بترجمة نتائج عقولهم الفريدة وفيوضاتهم البارعة؛ فإن كل عالم يقرأ شيئًا لجهابذة العلم في الهند يجد فيه علمًا جديدًا وغنيًا بالفائدة والفتوحات العلمية التي عمادها التقوى والصلاح والانهماك في العلم مع الانقطاع عن كل ما سواه.

فلذلك لاتخلو مؤلفات الشيوخ الأماجد علماء الهند من جديد و مفيد، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، و كثير منها ما لم يوجد في كتب أكابر العلماء المتقدمين مفسرين أو محدثين أو حكماء، ولكن نقول- والأسف يحزّ في النفس ويأخذ بالتلابيب-: إن جمهرة تلك المؤلفات النادرة أوكلها قد أُلِّفت باللغة الأردية وهي لغة بلاد الهند، وليست هي لغة علوم الإسلام المنتشرة، فتلك هي اللغة العربية، هذه العلوم والكشوفات التي فاز بها إخواننا علماء الهند إذا بقيت في قوالبها الأردوية بقيت محجورةً عن أعيننا نحن معشر الناطقين بالعربية، وفي هذا غبن كبير لنا وللعلم والدين؛ لأن تلك الكتب أُلِّفت لخدمة الدين والإسلام فلا يجوز قصرها على مجموعة من الناس ومنعها عن مجموعة من الناس؛ بل إن من أوجب الواجبات العلمية وأداء حق المعرفة أن تترجم تلك الكتب النفيسة إلى العربية لتستنير بها عيونٌ وقلوبٌ ظمآى إليها جدًا، وهذا الحق الثقيل لاينهض به -فيما إخال- إلا هذا المعهد العامر الزاخر بالعلماء والطلبة النجباء»[2].

ويبلغ عدد من استكملوا العلوم والفنون في دارا لعلوم/ديوبند ليومنا هذا نحو اثني عشر ألف طالب. وأما الذين لم يتسنَّ لهم إكمال العلوم، وهم على صلة بالاستفادة من دارالعلوم، فيبلغ عددهم نحو ستين ألفًا. فمن الصعوبة بمكان العثور على تراجم(٧٢) ألف شخص، غير أنه تم العثور على (١١٦٤) من أبنائها المؤلفين، ثلاث مئة منهم يحتلون مكانة بارزة في مجال التأليف[3]. ولو ذهبنا نسرد أعمال هؤلاء المصنفين من أبنائها المذكورين لتطلّب ذلك مجلدًا ضخمًا. وهو موضوع مفرد بذاته، وغير خافٍ أن المؤسسة التعليمية التي انتشر خريجوها في مختلف مناطق الأرض: شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، وأكبّوا على الأعمال العلمية والدينية منذ مئة عام من الزمان، من الصعوبة بمكان العثور على تراجمهم. أضف إلى ذلك أن هذه الصفحات المحدودة تعجز حتى عن استقصاء كافة الأعمال وأصحابها، فنكتفي بذكر أعمال بعض المصنفين، لا محالة[4].

تراجم معاني القرآن الكريم وتفاسيره وما يتعلق بها:

١- ترجمة معاني القرآن الكريم: شيخ الهند محمود حسن الديوبندي.

٢- ترجمة معاني القرآن الكريم: حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي.

٣- ترجمة معاني القرآن المجيد (بالكشميرية):

للشيخ محمد يوسف شاه الكشميري.

٤- تعليقات على ترجمة معاني القرآن الكريم لشيخ الهند محمود حسن الديوبندي: العلامة شبير أحمد العثماني الديوبندي.

٥- تعليقات على ترجمة معاني القرآن الكريم للشاه عبد القادر رحمه الله: الشيخ أحمد علي اللاهوري.

٦- إعجاز القرآن: العلامة شبير أحمد العثماني الديوبندي.

٧- تفسير بيان القرآن(١٢مجلدا): الشيخ أحمد علي اللاهوري.

٨- التفسير الثنائي: الشيخ ثناء الله الأمرتسري.

٩- تفسير القرآن بكلام الرحمن (بالعربية): الشيخ ثناء الله الأمرتسري.

١٠- تفسير المعوذتين: الشيخ محمد قاسم النانوتوي.

١١- ترجمة تفسير الجلالين: الشيخ المفتي عزيز الرحمن الديوبندي.

١٢- تفسير معارف القرآن(١٢مجلدا): المفتي محمد شفيع الديوبندي ثم الكراتشوي.

١٣- تفسير معارف القرآن: الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي.

١٤- تفسير الحاوي(الأمالي على البيضاوي): الشيخ السيد فخر الحسن رئيس هيئة التدريس بدارالعلوم.

١٥- تدوين القرآن: الشيخ مناظر أحسن الكيلاني.

١٦- التعوذ في الإسلام: الشيخ محمد طاهر القاسمي حفيد الإمام محمد قاسم النانوتوي.

١٧- حاشية البيضاوي(باللغة العربية): الشيخ عبد الرحمن الأمروهوي صاحب الإمام النانوتوي.

١٨- ديني دعوت كى قرآني أصول(مبادئ الدعوة الدينية في القرآن الكريم): حكيم الإسلام محمد طيب.

١٩- سبق الغايات في نسق الآيات: حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي.

٢٠- العون الكبير شرح الفوز الكبير: الشيخ سعيد أحمد البالنبوري، أستاذ بدارالعلوم/ديوبند.

٢١- فهم القرآن: الشيخ سعيد أحمد الأكبر آبادي.

٢٢- قصص القرآن: الشيخ حفظ الرحمن السيوهاروي.

٢٣- كمالين ترجمة كتاب الجلالين إلى الأردية: الشيخ محمد نعيم أستاذ بدارالعلوم/ديوبند.

٢٤- مشكلات القرآن(باللغة العربية): العلامة السيد محمد أنور شاه الكشميري.

٢٥- منحة الجليل في بيان ما في معالم التنزيل: المفتي عزيز الرحمن.

٢٦- وحي إلهي: الشيخ سعيد أحمد الأكبر آبادي.

٢٧- هداية المهديين في آية خاتم النبيين: الشيخ المفتي محمد شفيع الديوبندي ثم الكراتشوي.

الحديث وما يتعلق به:

١- الأبواب والتراجم: شيخ الهند محمود حسن الديوبندي.

٢- إعلاء السنن[٥]: الشيخ ظفر أحمد العثماني بإشراف حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي.

٣- ألفية الحديث: الشيخ محمد منظور النعماني.

٤- أنوار الباري شرح صحيح البخاري: الشيخ أحمد رضا البجنوري.

٥- أنور المحمود حاشية على سنن أبي داود: العلامة أنورشاه الكشميري.

٦- منتخب أحاديث الصحاح الستة: الشيخ القاضي زين العابدين سجاد الميروتي.

٧- إيضاح البخاري: الشيخ فخر الدين أحمد.

٨- بذل المجهود شرح أبي داود(باللغة العربية،٥ مجلدات): الشيخ خليل أحمد الأنبيثوي.

٩- تدوين حديث: الشيخ مناظر أحسن الكيلاني.

١٠- ترجمان السنة: الشيخ بدر عالم الميروتي.

١١- ترجمة صحيح البخاري إلى الأردية: الشيخ شبير أحمد العثماني.

١٢- التعليق الصبيح شرح مشكاة المصابيح (باللغة العربية): الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي.

١٣- التعليق المحمود حاشية على سنن أبي داود: الشيخ فخر الحسن الكنكوهي.

١٤- تقرير الترمذي: شيخ الهند محمود حسن الديوبندي.

١٥- حاشية آثار السنن للعلامة شوق النيموي: العلامة محمد أنور شاه الكشميري.

١٦- حاشية سنن ابن ماجه (باللغة العربية): العلامة محمد أنور شاه الكشميري.

١٧- حجية الحديث: الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي.

١٨- حديث رسول كا قرآني معيار: حكيم الإسلام الشيخ المقرئ محمد طيب.

١٩- روض الرياحين ترجمة بستان المحدثين: الشيخ عبد السميع الديوبندي.

٢٠- سنن سعيد بن منصور(بالعربية): تعليق: الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي.

٢١- شرح الترمذي: العلامة محمد إبراهيم البلياوي.

٢٢- العرف الشذي على جامع الترمذي (العربية): العلامة السيد محمد أنور شاه الكشميري.

٢٣- فتح الملهم شرح صحيح مسلم (العربية): الشيخ شبير أحمد العثماني.

٢٤- فضل الباري شرح صحيح البخاري: الشيخ شبير أحمد العثماني.

٢٥- فيض الباري على صحيح البخاري (بالعربية): العلامة السيد محمد أنور شاه الكشميري.

٢٦- القول الفصيح: الشيخ سيد فخر الدين أحمد.

٢٧- كتاب الزهد والرقاق: تعليق وتحقيق: الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي.

٢٨- الكوكب الدري: الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي.

٢٩- مسند الحميدي (بالعربية): تعليق وتحقيق: الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي.

٣٠- مشكاة الآثار: الشيخ السيد محمد ميان الديوبندي.

٣١- مصنف عبد الرزاق(بالعربية، ١١مجلدا): تعليق وتحقيق:الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي.

٣٢- المطالب العالية (بالعربية، ٤ مجلدات): الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي.

٣٣- مظاهر الحق شرح مشكاة المصابيح (جديد): الشيخ عبد الله جاويد.

٣٤- معارف الحديث (٥ مجلدات): الشيخ منظور أحمد النعماني.

٣٥- معارف السن شرح جامع الترمذي: الشيخ محمد يوسف البنوري.

٣٦- معارف مدنية،أمالي الشيخ حسين أحمد المدني على سنن الترمذي: ترتيب: السيد طاهر حسن.

٣٧- معارف المشكاة شرح مشكاة المصابيح: الشيخ عبدالرؤوف عالي.

٣٨- نبراس الساري على أطراف البخاري (بالعربية): الشيخ عبد العزيز غجرانوالا.

٣٩- النفح الشذي شرح الترمذي: الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي.

٤٠- الورد الشذي على جامع الترمذي: شيخ الهند محمودى حسن الديوبندي.

* * *

الهوامش:

(١) الشيخ عبد الفتاح أبوغدة من سكان الشام، ومن أجلة العلماء في العالم الإسلامي، سعد بالأخذ من العلامة زاهد الكوثري، يقوم بالتدريس في جامعة الرياض(السعودية) في هذه الأيام. زار الشيخ عبد الفتاح أبو غدة عام ١٣٨٢هـ دارالعلوم/ديوبند، وأعرب عن انطباعاته القيمة عن دارالعلوم/ديوبند، وقام الشيخ بطبع كتاب «التصريح بما تواتر في نزول المسيح» بالآلة الكاتبة في حلة قشيبة. كما قام بالتعليق على بعض أعمال الشيخ عبد الحي اللكنوي (المتوفى ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م) أيضًا.

يُعدُّ الشيخ أبو غدة من المحققين المشهورين، له عشرات من الكتب، وعلى مكانة سامية في علم الحديث، كما أن كثير الإكرام والتقدير لعلماء الهند، كبير المعرفة بمكانهم العالي.

(٢) للاستزادة من انطباعات الشيخ عبد الفتاح راجع: الباب العاشر من الكتاب.

(٣) دارالعلوم ديوبند كي صد ساله زندكي- قرن من حياة دارالعلوم ديوبند-، ص ٥٣، ٨٦. وهذه الإحصائيات تقتصر على مئة عام، وبقي تقصي الإحصائيات لمدة أربع عشرة سنة.

(٤) وحاول الشيخ ظفير الدين - مدير مكتبة دارالعلوم/ديوبند- جمع كتب ومؤلفات علماء ديوبند في قاعة خاصة بها، وقد وفق لجمع ما ينيف عن ألفي كتاب. كما ينوي الشيخ إعداد فهرس تعريفي بمحتويات هذه القاعة، وعما قريب سيرى هذا الفهرس النور. وستتجلى صورة جامعة لمؤلفات خريجي دارالعلوم/ديوبند بعد ما يتم جمعها وإعداد فهرس لها. وإذًا كان بإمكاننا أن نقدر-تقديرًا صحيحًا- مدى الخدمات التي أسداها خريجو دارالعلوم في هذا المجال، ومدى قيمة هذا الترث العلمي للعهد الحاضر. ولم يترك علماء ديوبند جانبا من جوانب التفسير والحديث وأصول التفسير وأصول الحديث، والفقه والكلام والتصوف والأخلاق والتاريخ والأدب، والسياسة وغيرها من العلوم والفنون – إلا طرقوها بمصنفاتهم وأعمالهم العلمية،التي نفعت الأمة نفعًا عظيمًا. (سيدمحبوب الرضوي).

(٥) إعلاءالسنن: مجموعة من الأحاديث والآثار قيمة، في (١٨) مجلدا، تجمع الأحاديث التي استنبط منها الفقه الحنفي. قام بهذا العمل الجليل الشيخ ظفر أحمد التهانوي وغيره من العلماء بإشراف من حكيم الأمة أشرف علي التهانوي. اكتمل الكتاب عام ١٣٨٥هـ، تسرد هذه المجموعة الأحاديث التي تؤيد ما ذهب إليه الأحناف في المسائل الخلافية من كتاب الطهارة إلى كتاب المواريث. فهي ذخيرة هامة للأحاديث التي تؤيد مذهب الأحناف، ومن كتب الحديث المعدودة التي تعتز بها الهند، وتم نقل سبعة مجلدات أولى من «إعلاء السنن» إلى اللغة الأردية. (السيد محبوب الرضوي).

* * *

واجبنا نحو القرآن الكريم

بقلم: **الدكتور حفيظ السليماني**(*)

إن أعظم تكريم للقرآن الكريم هو نزوله في شهر رمضان، يقول الحق سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ (سورة البقرة:١٨٥). هذا القرآن الذي يُعدّ هدىً للناس لهو أمر جليل القدر، فبه سيهتدي الناس إلى طريق الحق، وبه سيتبعون السبيل الصحيح ليفلحوا في دنياهم وأخراهم. فهو كتاب فيه شفاء ورحمة مصداقًا لقوله الكريم: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الإسراء:٨٢).

إن القرآن الكريم معجزة ديننا الحنيف ودستورنا الذي يربطنا بربنا سبحانه، ليصلح بها حالنا في الدنيا والآخرة. ولقيمة وأهمية هذا القرآن تكفل الله بحفظه مصداقًا لقوله الكريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الحجر:٩). وقد تحدَّى الله سبحانه البشرية عامةً والمشركين خاصةً الإتيان به، وذلك في ثلاث آيات، في الأولى تحدّاهم الإتيان بمثله في قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (سورة الإسراء:٨٨). ثم تحدّاهم الإتيان بعشر سور يقول الحق سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة هود:١٣)، فلما عجزوا عن ذلك تحدّاهم الإتيان بسورة واحدة وذلك في قوله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة يونس:٣٨).

بالإضافة إلى العناية الربانية بالقرآن الكريم، فقد وصفه الله جل في علاه بأنه كتاب العالمين وذلك في قوله عز وجل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) (سورة الفرقان:١). إذن فحفظ الله للقرآن الكريم وكونه هدى من الله للمؤمنين، يستوجب علينا نحن المسلمين أن نقوم كذلك بواجبنا نحو كتابنا العزيز، تصديقًا وتلاوةً وتدبّرًا وتبليغًا وغيرها من الواجبات.

واجب الإيمان:

لقد جاءت آيات صريحة تدعو إلى الإيمان بما جاء الرسول الكريم، من ذلك قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ

(*) دكتوراه في الفكر الإسلامي ومقارنة الأديان- المملكة المغربية.

بِاللَّهِ وَمَلَٰئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (سورة النساء:١٣٦). يقول البغوي في تفسيره هذه الآية: «يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْقُرْآنِ وَبِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالتَّوْرَاةِ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ، يَعْنِي الْقُرْآنَ، وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ، مِنَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَسَائِرِ الْكُتُبِ»[١].

كما توعد الله المكذبين به بجنهم حيث يقول جلّ في علاه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ (سورة الزمر:٣٢). يفسر الطاهر بن عاشور الآية قائلًا: «ظُلْم الِاعْتِدَاءِ عَلَى حُرْمَةِ الرَّبِّ بِالْكَذِبِ فِي صِفَاتِهِ؛ إِذْ زَعَمُوا أَنَّ لَهُ شُرَكَاءَ فِي الرُّبُوبِيَّةِ، وَالْكَذِبِ عَلَيْهِ بِادِّعَاءِ أَنَّهُ أَمَرَهُمْ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْبَاطِلِ، وَظُلْم الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَكْذِيبِهِ، وَظُلْم الْقُرْآنِ بِنِسْبَتِهِ إِلَى الْبَاطِلِ، وَظُلْم الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَذَى، وَظُلْم حَقَائِقِ الْعَالَمِ بِقَلْبِهَا وَإِفْسَادِهَا، وَظُلْم أَنْفُسِهِمْ بِإِقْحَامِهَا فِي الْعَذَابِ الْخَالِدِ»[٢].

واجب التلاوة والتدبر:

لقد جاء واجب التلاوة في آية قرآنية صريحة حيث أمر الله سبحانه نبينا عليه السلام بذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ (سورة النمل:٩١-٩٢). هنا الأمر الإلهي صريح بتلاوة القرآن، يقول البغوي وهو يفسر الآية: «قَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّمَا أُمِرْتُ، يَقُولُ اللَّهُ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ، أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ، يَعْنِي مَكَّةَ، الَّذِي حَرَّمَهَا، يعني جَعَلَهَا اللَّهُ حَرَمًا آمِنًا لَا يُسْفَكُ فِيهَا دَمٌ وَلَا يُظْلَمُ فِيهَا أَحَدٌ وَلَا يُصَادُ صَيْدُهَا وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا، وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ، خَلْقًا وَمِلْكًا، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِلَّهِ. وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ، يَعْنِي وَأُمِرْتُ أن أَتْلُوَ الْقُرْآنَ»[٣].

ونحن المسلمين مطالبون بواجب التلاوة، فالخطاب الموجه لنبينا الكريم هو خطاب موجه إلينا كذلك، ولنا في هذه التلاوة الأجر العظيم، يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (سورة فاطر:٢٩-٣٠). وقد قارن الرسول عليه السلام بين الذي يقرأ القرآن والذي لا يقرأ، فعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ، لاَ رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ»[٤].

إن واجب التلاوة لا يكتمل إلا بواجب التدبر ليقف بذلك القارئ على معنى آيات الكتاب العزيز

ومقاصدها وحكمها. يقول الحق جل في علاه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (سورة النساء:٨٢). جاء في تفسير الطبري لهذه الآية: «يعني جلّ ثناؤه بقوله: «أفلا يتدبرون القرآن»، أفلا يتدبّر المبيتون غير الذي تقول لهم، يا محمد كتاب الله، فيعلموا حجّة الله عليهم في طاعتك واتباع أمرك، وأن الذي أتيتهم به من التنزيل من عند ربهم، لاتّساق معانيه، وائتلاف أحكامه، وتأييد بعضه بعضًا بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق، فإن ذلك لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه، وتناقضت معانيه، وأبان بعضه عن فساد بعض»[٥]. هذا القرآن الكريم قد أنزله ميسَّرا سهل التدبّر يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (سورة القمر:١٧).

واجب التعظيم:

لقد دعانا الله سبحانه ضرورة الإنصات للقرآن، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (سورة الأعراف: ٢٠٤). ومن عظمة هذا القرآن لو أنزله على جبل لخرّ هذا الأخير خاشعًا يقول الله سبحانه في ذلك: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الحشر:٢١).

واجب التبليغ:

إن من الواجبات نحو القرآن الكريم، واجب التبليغ؛ ليصل إلى العالمين؛ ليعرفوا كنوزه، وليحتكموا إلى أحكامه، ليكون أولًا وأخيرًا دستور المسلمين بصفة خاصّةً والعالمين عامّةً. وقد دعانا الرسول الكريم -عليه أزكى الصلاة والتسليم- إلى تبليغه في قوله: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»[٦]. كما قال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[٧].

في الختام، نؤكد على أن واجبنا نحو القرآن يفوق بكثير ما ذكرته، فهذا الكتاب المبين العظيم بحاجة إلى الاهتمام أكثر وأكثر ليس على مستوى الحفظ في الصدور فحسب؛ بل بالاهتمام بدور القرآن المتخصصة في فقه علوم القرآن؛ لنصل في النهاية إلى جيل القرآن، وبالتالي سيكون أمتنا الإسلامية بصفة خاصة أمة الصلاح والفلاح، وهذا ما سيعود في الوقت نفسه على الإنسانية جمعاء بالخير.

* * *

الهوامش:

(١) معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ١٤٢٠، ج١، ص:٧٢٠

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤، ج٢٤، ص: ٦٢.

(٣) معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي، ج٣،ص: ٥٢٠ ٣.

(٤) أخرجه البخاري٣٤٠٧٤.

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٠، ج٨، ص: ٥٦٧.

(٦) أخرجه البخاري٣٤٦١٦.

(٧) أخرجه البخاري ٥٠٢٧٧.

* * *

الحث على العمل ومضار الكسل

بقلم: **الأستاذ محمد يحيى القاسمي** (*)

ينبغي لكل امرئ مسلم يعيش على وجه هذه البسيطة أن يكون متعودًا الجدَّ والاجتهاد، حريصًا على القيام بالأعمال، قاضيًا أيام حياته حافلةً بالأعمال والإنجازات والنشاطات، وليكن عضوًا عاملًا قويًا متحركًا في المجتمع يأتي بالعجائب والغرائب بدلًا من أن يعيش كسلان عاطلًا عن العمل ليس له شغل. وليذكر دائمًا أن «العمل خير بكثير من البطالة» فإن الذي يباشر الأعمال، ويمارس النشاطات وينطلق في الأعمال يأتي – بالطبع – بما يعود على نفسه وأهله وذويه حتى على بلاده من النفع والفائدة حيث يستطيع أن يقدم المساعدات المالية إلى الآخرين، ويقف جانب الفقراء والمساكين من أبناء جلدته وجنسه، ويخدم العباد والبلاد بما كسبه من المال. ويقوم بالعبادات التي تتطلب المال كالحج والزكاة.

والعمل نفسه يحمل فوائد جمّة، إذ به ينشط جسمُ صاحبه ويعزز ثقته بنفسه ويزيده تصميمًا على التمرّس لمواجهة متاعب الحياة، والتغلّب على مصاعبها، وهو كذلك يزيل سآمة البطالة، وضجر التراخي والتكاسل، كما أنه يكسب المال الذي يؤمّن له العيش الكريم والحياة السعيدة.

وأما الذي يجعل نفسه عاطلًا، ضائعًا مُقعدًا لا يقضي حياة هادفة لا يشغله شغل ولا يعنيه أمر، ولا يهمّه شيء – مع ما منحه الله عزوجل من القوة ووهبه من الأهلية ما يمكّنه من تحقيق الأعمال المجيدة، ويعينه على كسب الإنجازات الرائعة، ويساعده على القيام بالمآثر القيّمة – فإنه على العكس من ذلك المذكور أعلاه تمامًا يعود ثقلًا على الأرض التي يمشي عليها، وكَلّا على المجتمع الذي يعيش فيه، ووبالًا بمعنى الكلمة على الأسرة التي هو أحد أعضائها.

ومما تنطق به التجربة وتعززه المشاهدة أن الإنسان عندما يكون عاطلًا ضائعًا يعيش بعيدًا عن الأعمال والوظائف – رغم ما وهبه الله جل وعلا من قوة جيدة وصحة موفورة – سرعانَ ما يتبادر ويتطرق إلى ذهنه أنواع منوعة من الأوهام والأباطيل والمفاسد والانحلالات، وهذا الأمر قد بلغ من الوضوح بمكان يعرفه ويعترف به كل من هبَّ ودبَّ على وجه الأرض ويتابع ما يشهده المجتمعات المعاصرة من الأوضاع والأحوال من الأمن والاستقرار ومن الخراب والفساد. قال حكيم الأمة أشرف علي التهانوي -رحمه الله- ما معناه: «إن السلامة يكمن في أن يكون الإنسان في شغل، ولو كان ذلك الشغل مما يبيحه الإسلام مما ينصرف إلى شؤون الدنيا لا إلى أمور الآخرة، وذلك نظرًا إلى أن العمل خير بكثير من البطالة على كل حالٍ». و يقول: «إن الإنسان عندما يعيش فارغًا كلَّ

(*) أستاذ الأدب العربي بالجامعة القاسمية شاهي مرادآباد.

الفراغ يستحوذ ويتغلب عليه الشيطان، فيأتي طبعًا بما يأتي به الشيطان من أعمال هدامة وحركات رذيلة خبيثة». وقال صاحب السماحة عبد الحق المحدث الدهلوي رحمه الله ما معناه: «إن الله لم يخلق هذا العالم إلا ليقوم الإنسان فيه بالأعمال، فليكن الإنسان عضوًا قويًا عاملًا في المجتمع، وليترك الهفوات ولا يُلق إلى الكلام الفارغ بالًا، ولا يعزبن عن باله أن الأجير العامل هو الذي يستحقّ وحده الأجرة دون غيره، ومما رُوي عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه يقول: كراهيتي شديدة لكل من يكره العمل ولا يتشجع على ما يعود إليه بالفائدة في الدين أو الدنيا».

إخواننا العرب يقولون - وهم صادقون في قولهم تمامًا-: إن «البطالة أم العيوب» فالواقع ينصّ على أن كل ما يشهده البلاد من ا لسرقة والاختطاف والاختلاس والقتل والدمار وما إليها من الحوادث المأساوية، وكل ما يشهده مجتمعنا المعاصر من الغيبة والنميمة ومن السبّ والشتيمة وما إليها من العادات السيئة المنكرة يأتي معظمها على أيدي هؤلاء العاطلين عن العمل، العابثين بالحياة، الذين ليس لديهم شغل يقومون به، ولنعم ما قال الشاعر العربي الخبير الذي حلب الدهرَ أشطُرَه:

إن الشباب والفراغ والجدة

مفسدة للمرء أي مفسدة

ولقد تناول الكاتب العربي «مروان قدري المكانسي» هذا البيت بالشرح والتعليق مما أعجبني كثيرًا جدًّا، وإليك ذلك الشرح نقلًا عن كتابه: «هداية البصير في الإنشاء والتعبير ص: ٦٢».

«أجل؛ لأن الشباب طاقة كامنة وحيوية متدفقة وصحة تامة وهمة وثّابة، فإذا وُجِّهت في مسراها الصحيح أعطت وقدّمت، ونبت وأتت، غرست وأثمرت. وإذا ما سلكت طريقًا آخر هدّمت وفتكت، وأسرفت ودمّرت، وأدّت وأتلفت؛ لأجل ذلك اهتمّ الدين الحنيف فمدحهم القرآن الكريم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ وتوالت نداءات المصطفى -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «يا معشر الشباب»؛ بل حرص الرسول الكريم -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن تكون مرحلة الشباب للغراس والبذار والعطاء والعبادة فقال في حديثه: «اغتنم خمسًا قبل خمسٍ .... وشبابك قبل هرمك».

وأما الخطر الثاني: فإنه يكمن في إضاعة الوقت، وما الوقت إلا عمر الإنسان ألم تسمع شوقي وهو يقول:

دقات قلب المرء قائلة له

إن الحياة دقائق وثوان

إي وربي ما العمر – على امتداده – إلا عدد من الدقائق والثواني، فإذا ما أفلتت دقيقة من حياتك فلن تعود إلى يوم القيامة، أفلا يجدر بنا أن نحرص على أعمارنا، أفلا ينبغي لنا أن نسعى جاهدين لملءِ أوقاتنا بالعمل الصالح الذي يرجع إلينا باللباب من كل خير، إن أمة لا تستغل زمانها بما يطوّرها ويرقى بها مدارج العز، أمة حكمت على نفسها بالوأد والانتحار، وإن أفرادًا لا يحرصون على أعمارهم، ويدّعون أنهم يملكون فراغًا طويلًا، ويبحثون عن سبيل يقتلون فيه أوقاتهم أولئك قوم مآلهم الهلاك والدمار.

وأما ثالثة الأثافي فهي «تدفق المال الهدار بين أيدي الشباب» ماذا يفعل بالمال وهو جم كثير؟ كيف يصرفه وهو لا يجد إلا شهواته وملذاته؟ عبد رزقه الله مالًا ولم يرزقه علمًا فهو يخبط في ماله بغير

علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، والمرء إذا لم يكابد ويجاهد من أجل الكسب الحلال، وجاءه المال سهلًا لينًا من غير ما تعِبَ وجهدَ، فرّط به بيسر وسهولة ومن غير مبالاةٍ.

ومن أخذ البلاد بغير حرب
يهون عليه تسليم البلاد

فتراه يصرفه شذر ومذر، ويخبط فيه خبط عشواء، ولا يحترم النعمة التي جعلها الله في يديه؛ بل يجاهر بها في معصية المنعم سبحانه حتى يصدق فيه قول الله جل في عليائه: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق:٦-٧]

وبعد! فإن هذه المخاطر الثلاثة لو سُلّط الواحد منها على الأمة لأهلكها وأفسدها، فما بالك لو جاءت مجتمعةً؟ إنها كالسيل العارم الذي لا يُبقي شيئًا ولا يذر، فكيف تخرج من هذه المشاكل؟ ما عليك إلا أن تنفذ قول المصطفى ﷺ: «اغتنم خمسًا قبل خمسٍ: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك». انتهى كلامه.

نجد أمثال هؤلاء العاطلين عن العمل، متعطِّلين في كل مجتمع معاصر في عدد لا بأس به، ومما يؤسف له جدًّا أن عددهم في تزايد مستمر يوميًّا: أمثال هؤلاء الناس لا يعرفون لأنفسهم قدرًا ولا لحياتهم قيمتها؛ بل يقضون حياة غير هادفة، وممارسة أي عمل مما يعتبرونه يقلّل من شأنهم وعزهم، ويلزمهم من العار كأنهم لا يستطيعون دفعه عن أنفسهم، لعلهم لم يبلغهم أنه ذات مرةٍ سُئلت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما كان يصنع النبي الكريم في بيته؟ فأجابت قائلة: كان يكون في مهنة أهله – تعني خدمة أهله – فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة، وفي رواية كان بشرًا من البشر يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه» قال العلامة المناوي: وفيه ندب خدمة الإنسان لنفسه، وأن ذلك لا يخلّ بمنصبه وإن جلّ.

والأمر لا يقتصر على ذلك؛ بل يعدوه إلى أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما برح عاملًا عند بعض أغنياء مكة سعيًا وراء القوت المباح والرزق الحلال حيث رعى -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- شياه أهل مكة لقاء أجرة قليلة قراريط معدودة، ومن المشهور جدًّا أنه ﷺ سافر إلى بلاد الشام حاملًا معه بضائع السيدة خديجة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قاصدًا التجارة الرابحة، فعمل رسول الله للسيدة خديجة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- عندها عاملًا وأجيرًا مستخدمًا مرتزقًا.

وصل رسولنا الكريم -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مهاجرًا من مكة إلى المدينة المنورة، وكان أول عمل قام به رسولنا الكريم -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن أمر ببناء المسجد لإقامة الصلاة ولعقد الاجتماعات، وتقدم رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الناسَ، وضرب أول معول لحفر الأساس فاندفع وراءه الرجال يعملون راغبين أن ينال كلّ نصيبه من ثواب الله تعالى، وكان الناس يرون رسول الله -ﷺ- في هذا العمل، فيضرب بالمعول، وينقل التراب بالوعاء، ويحمل اللبن الذي يضعونه لإقامة الحيطان. وكان الرجال يرجونه أن يجلس بلا عمل وأن يشرف عليهم ويوجّههم؛ ولكنه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لم يقبل بذلك؛ لأنه يريد أن يكسب الأجر والثواب كغيره؛ ولذلك فإنه عندما تقدم إليه بعض الرجال يرجوه أن يعطيه اللبنة التي يحملها هو -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال له

الرسول ﷺ: «اذهب فلست بأفقر إلى الله مني».

نعم! إن العمل هو نهج في الاسلام؛ بل هو فريضة على كل مسلم ومسلمة، من أجل أن يرتفع شأن المجتمع، وتعز كرامة المسلمين، ويعيش المسلم معتمدًا على ربه وعلى نفسه، وذلك خير له من أن يعيش متوكلًا ومتكلًا وكَلًّا على غيره من أبناء جلدته وجنسه.

وهناك قصّة تاريخيّة تتعلق بغزوة الخندق معلومة لدى أهل العلم، صوّرها صاحب «سيرة خاتم النبيين للبنات والبنين» سميح عاطف الزين أبلغ تصوير، تحكي بوضوح أن كلًّا من العمل والسعي والجد كان محببًا لدى رسوله الكريم ﷺ، يؤديه ولا يحفل بما يصيبه من جرّاء ذلك من تعب، ولا بما يواجهه من إرهاقٍ. وأما أصحابه فكانوا في هذا السبيل نسخة منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

«وكان عدد المسلمين يومئذ قليلًا بالنسبة لأعدائهم فاجتمع الصحابة مع رسول الله ﷺ يعدون الخطة لمواجهة أولئك الأعداء الكافرين، فاقترح أحد الصحابة – يدعى سلمان الفارسي – أن يحفروا حول المدينة خندقًا يستطيعون من ورائه الدفاع عن أنفسهم، فوافق رسول الله ﷺ ووافق المسلمون على هذه الفكرة الصائبة، فذهب الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وراح يتفقد النواحي التي تحيط بالمدينة، فرأى أن يكون الخندق وراء جبل سلع، وهي الناحية المكشوفة التي يمكن للأعداء الدخول منها إلى المدينة بسهولة، وأذن مؤذّن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالرجال أن يذهبوا إلى العمل، فلما اجتمعوا وزّعهم النبي الكريم -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مجموعات ومجموعات، تضم كل مجموعة عشرة رجال، وفرض عليها أن تحفر أربعين ذراعًا، وبذلك لا يأخذ حفر الخندق كله إلا وقتًا قليلًا؛ لأن العمل يكون متواصلًا، متلاصقًا من جميع المشاركين فيه.

واندفع رجال الإسلام إلى هذا العمل بعزم قوي، ولهجة عالية، وبينهم رسول الله ﷺ الذي كان يشارك في العمل الآخرين كواحدٍ منهم، فيضرب بالمعول ويجرف بالمسحاة وينتقل إلى حمل الحجارة والصخور أو إلى نقل التراب بالوعاء، فإذا لم يجد وعاء كان ينقله بطرف عباءته.

ورأى الرجال رسول الله -ﷺ- يعمل ويكدّ ويكدح في العمل متنقلًّا من جماعة إلى جماعةٍ، فيحثّهم ذلك على بذل الجهد، وعلى المواصلة في العمل حتى لا يداهمهم العدو قبل أن يفرغوا من حفر هذا الخندق فازدادوا حماسةً وازدادوا سرورًا بهذا التشجيع من رسولهم الكريم ﷺ.

وتواصل العمل في الليل والنهار، والرسول العظيم يدأب عليهم مع الرجال دون كلل، وإذا أحس بتعب جلس يتكئ على حجر كبير، ويتأمل ما يقومون به فترتاح نفسه لإخلاص هؤلاء المؤمنين ولشدة صبرهم على المشقة – إلى أن قال – فما أعظم نبينا محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاملًا مكافحًا مجاهدًا لم يترك ساعة من عمره إلا ملأها بالعمل المفيد النافع؛ ولذلك جاء في الحديث الشريف «خير الأعمال ما نفع، وخير الهدي ما اتبع، وشر العمى عمى القلب، واليد العليا خير من اليد السفلى» أي إن الذين يعملون وينفقون على عيالهم ويعطون الفقراء المحتاجين خير من الكسالى الذين يعيشون عالةً على أهلهم وعلى الآخرين، أو يمدون أيديهم للناس كي يتصدقوا عليهم.

ومن الجدير بالذكر أنه كما يجب على المسلم القيام بالعبادات من الصلاة والصوم والزكاة على أكمل وجهٍ، يجب عليه احتضان ما يدرُّ عليه من الدخل ما يعينه على الإنفاق على نفسه وأهله وذويه ومن إليهم من وسائل المعيشة حيث قال رسول الله -ﷺ-: «كسب الحلال فريضة بعد الفريضة» وهذا الأخير من الفريضة ولو قلّ شأنًا وأهمية عن الواجب الأول إلا أنه يحتل أهمية قصوى في حد ذاته، والناس في هذا الخصوص بين إفراط وتفريط، فمنهم من لا يلقي بالًا لا إلى هذا ولا إلى هذا، ومنهم من ينصب جل؛ بل كل اهتماماته على القيام بالعبادات بحيث كان القيام بكسب لقمة العيش ليس من الفريضة عنده في شيء، ومنهم من يبذل جل؛ بل كل عنايته في كسب ما يعينه على قضاء الحياة سعيدة رغيدةً، غير ملتفت وغير مكثرتٍ بأداء العبادات، مع أن الجمع بينهما – كما قدمناه – هو المطلوب عقلًا وشرعًا، وقد جاءت الإشارة إليه في الحديث المذكور أعلاه.

كثيرًا ما نشاهد في مجتمعنا هذا الذي نعيش فيه نحن المسلمين أن عضوًا من أعضاء الأسرة يكون عاملًا كادحًا في كسب لقمة العيش، وأما غيره من أعضاء الأسرة فيعيشون مهملين عاطلين عن العمل متكلين على ذلك العضو القوي العامل المتحرك النشيط وعلى كسبه حتى في المأكل والمشرب والملبس والمداواة، كأن هؤلاء ميتون يحتاجون إلى من يتكلون عليهم في كل شيء، مع أن رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حثّ المسلمين على العمل وأبان مضار الكسل قائلًا: ما أكل ابن آدم طعامًا خيرًا قط من أن يأكل من عمل يديه، وكان نبي الله داود لا يأكل إلا من عمل يديه، وأيضًا قال ﷺ: كان نبي الله زكريا نجارًا.

قد جاء في الحديث الشريف ما يدل بوضوح وصراحةٍ أن العمل خير من الاستجداء، وهو أن رجلًا من الأنصار أتى النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يسأله فقال: أما في بيتك شيء؟ فقال: بلى! حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه من الماء فقال: ائتني بهما، فأتاه بهما فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال: من يشتري هذين؟ قال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال: من يزيد على درهم مرتين أو ثلاثًا. قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه، فأخذ الدرهمين، فأعطاهما الأنصاري وقال: اشتر بأحدهما طعامًا فانبذه إلى أهلك واشتر بالآخر قدومًا فائتني به فأتاه فشدّ فيه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عودًا بيده ثم قال: اذهب! فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يومًا، فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاءه وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبًا وببعضها طعامًا فقال رسول الله ﷺ: هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة.

وهذا الموقف النبوي – فيما يبدو – مما يمسّ قلب السائل في أعماقه حيث دخل عليه يسأل شيئًا وهو لا يقف بجانبه؛ بل يبيعُ حتى ما كان عنده من بعض الأشياء التافهة مما كان يعينه على قضاء الحياة بسيطة عاديةً؛ ولكن فداه –ﷺ– بأبي وأمي، أنه من خلال ذلك علّم ذلك الصحابي الجد والعمل في الحياة حتى يتحقق له اكتفاء ذاتي في جميع مجالات الحياة، وأن لا يعيش متوكلًا ومتكلًا وكلًّا على غيره؛ بل يعيش – ما دام يعيش – عزيزًا يموت – عندما يموت – كريمًا.

صور من سوء الخلق

بقلم: **الأستاذ/ محمد بن إبراهيم بن أحمد الحمد**

لسوء الخلق صور شتى منها:

١ - التهاجر والتدابر:

وما أكثر وقوع هذا الأمر بين المسلمين، فبمجرد اختلاف يسير، لا يترتب عليه فساد في الدين - تجد من يهجر أخاه، ويعطيه ظهره، ويقطع شواجر المحبة والرحمة والأخوة. قال - عليه الصلاة والسلام-: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»[١]. وإذا كان هذا الأمر مرفوضًا وقوعه بين عامة الناس - فإن المصيبة تعظم، وإن الخطب ليجلّ إذا وقع ذلك بين أهل العلم والفضل والعبادة، فذلك هو الداء العياء، والطعنة النجلاء. فمما يدمي الفؤاد، ويدل على استحكام الغفلة، وتمكن الشيطان أن تجد اثنين من أهل العبادة، وممن يتسابق للمجيء إلى المسجد، وقد يكونان ممن بلغ من الكبر عتيًّا، ومع ذلك كله تجدهما متهاجرَين متقاطعَين، لا يكلم أحدهما الآخر، ولا يسلم عليه بلا سبب يُذكر، أو بسبب يسير جدا!.

ومثل ذلك - أو أشد- ما يقع بين بعض طلبة العلم من تدابر، وتقاطع، ونفرة بسبب حسد، أو اختلاف في رأي لا يوجب اختلاف القلوب؛ مما يسبب الفرقة وشيوع العداوة والبغضاء، وتألب بعضهم على بعض؛ مما يجعلهم يفشلون، وتذهب ريحهم، ويصبحون شماتة للأعداء، فيصطلي بنار تلك الفرقة أهل الخير، والحريصون على جمع الكلمة، ويسر ذلك إبليس وأعوانه من شياطين الإنس والجن، الذين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا. فبدلًا من أن يجمعوا أمرهم، ويلموا شعثهم، تجدهم شذر مذر والله المستعان.

فكيف - إذًا - يصلحون الناس وهم لما يصلحوا ذات بينهم؟!

يا معشر القرآء يا ملح البلد

من يصلح الملح إذا الملح فسد

٢ - الحسد:

وهو تمني زوال نعمة المحسود، أو هو البغض والكراهية لما يراه من حسن حال المحسود[٢]. والحسد داء عضال، وسم قتال، لا يسلم منه إلا من سلَّمه الكبير المتعال. ولهذا قيل: «ما خلا جسد من حسد، ولكن اللئيم يبديه والكريم يخفيه»[٣]. فما أكثر وقوع الحسد بين الناس، فهذا يحسد لعلمه، وهذا يحسد لماله، وهذا لجاهه، وهذا لمنزلته بين الناس. وأكثر ما يقع بين النظراء، والمتشاركين، وأكثر ما يكون في صفوف النساء. والحسد خلق

ذميم، ومسلك شائن، فهو مضر بالبدن والدين، وهو من أعظم الأسباب الموجبة للفرقة والاختلاف. قال بعض السلف: «الحسد أول ذنب عُصي الله به في السماء»[٤] يعني حسد إبليس لآدم – عليه السلام–.

و الحسد – في الحقيقة – اعتراض على قضاء الله وحكمته؛ ولهذا قيل: «من رضي بقضاء الله لم يسخطه أحد، ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد»[٥]. ثم إن الحاسد هو أول متضرر من حسده، فالضرر لاحق به لا محالة. قال بعضهم: «ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلوم من الحسود؛ نفس دائم، وهو لازم، وقلب هائم»[٦].

وقيل – أيضا –:

لله در الحسد ما أعدله ... بدا بصاحبه فقتله

وقال ابن المعتز:

اصبر على كيد الحسو ... د فإن صبرك قاتله

كالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكله

قال ابن المقفع: «ليكن ما تصرف به الأذى عن نفسك ألا تكون حسودا؛ فإن الحسد خلق لئيم.

ومن لؤمه أنه موكل بالأدنى فالأدنى من الأقارب، والأكفاء، والمعارف، والخلطاء، والإخوان»[٧].

٣ – الحقد:

فتجد من الناس من يحمل قلبًا أسود، لا يعرف للعفو طريقًا، ولا للصفح سبيلًا؛ فإذا ما أسيء في حقه من أي أحد فإنه يحفظ تلك الإساءة، ولا يكاد ينساها، مهما تقادم العهد عليها. فتجده يتربص بصاحبه الدوائر، وينتظر منه غرة؛ لينفذ من خلالها، فيروي غليله، ويشفي غيظه.

٤ – مجاراة السفهاء:

فهناك من إذا ابتلي بسفيه ساقط، لا خلاق له، ولا مروءة فيه أخذ يجاريه في سفهه وقيله وقاله، مما يجعله عرضة لسماع ما لا يرضيه من ساقط القول ومرذوله، فيصبح بذلك مساويًا للسفيه؛ إذ نزل إليه وانحط إلى رتبته.

إذا جاريت في خلق دنيًا

فأنت ومن تجاريه سواء

قال الأحنف بن قيس: «من لم يصبر على كلمة سمع كلمات، ورب غيظ تجرعته مخافة ما هو أشد منه»[٨].

٥ – قلة الحياء:

فالحياء خلق يبعث على فعل الجميل وترك القبيح، فإذا عري الإنسان منه، وعطل من التحلي به فلا تسل عما سيقترفه من رذائل، ولا تعجب مما سيرتكبه من حماقات؛ فقليل الحياء لا يأبه بدنو همته، ولا يبالي بسفول قدره، ولا يجد ما يبعثه للفضائل، ولا ما يقصره عن الرذائل. هذا ولقلة الحياء صور عديدة منها:

أ – المجاهرة بالمعاصي عموما

ب – التدخين خصوصا في الأماكن العامة:

فالتدخين شر وبلاء بإجماع العقلاء، وهو محرم كما بين ذلك العلماء. ولكن البلية تعظم عندما يتعاطاه شاربه أمام ملأ من الناس، أو في مكان عام، إما بمستشفى، أو طائرة، أو قطار، أو في مكان انتظار أو نحو ذلك. فكم في مثل هذا العمل من التمادي في القحة؟ وكم فيه من قلة المبالاة

بالآخرين؟. ثم كيف تطيب نفس هذا المدخن وهو يؤذي من حوله بأنفاسه الكريهة المنتنة؟! ثم كيف يستسيغ إلحاق الضرر بغيره؛ فقد يكون من بين الحاضرين من هو مصاب بالربو، أو ممن يتأذى برائحة الدخان؟

ج- المماطلة بالدين:

فتجد من الناس من يأتي إلى رجل ميسور الحال، فيبدي له حاجته، ويلتمس منه إعانته بتقديم سلفة له إلى وقت قريب. وما هي إلا أن يظفر بإربه، ثم يتنكر لصاحبه، ويقلب له ظهر المجن، فيبدأ بالمماطلة، ويسوف بالسداد. وهذا دليل على ضعة النفس، وسوء الخلق، وقلة الحياء.

د- المعاكسات الهاتفية:

فهناك من يؤذي بيوت المسلمين بالاتصالات الهاتفية، والتي يبتغي من ورائها أن يظفر بمكالمة غادرة، يستجرّ بها إحدى المحارم بكلامه المعسول، وبعباراته الرقيقة. وربما وجد من يجاريه في سفالته وغيه، وربما وقع الهاتف في يد بريئة لا تعرف تلك الألاعيب، فاستدرجها هذا الغادر بالحديث، وربما سجلها في جهاز التسجيل ثم جعل تلك المكالمة إدانة لتلك المسكينة، يهددها بها إن لم تستجب لمطالبه.

وهذا الصنيع دليل على رقة الدين، وقلة الحياء، ودنو الهمة، والتمادي في السفالة. قال الشيخ بكر أبو زيد – حفظه الله – عن تلك العادة القبيحة: «كنت أظنها مرضًا تخطاه الزمن، وإذا بالشكوى تتوالى من فعلات السفهاء في تتبع محارم المسلمين في عقر دورهن، فيستجرونهن بالمكالمة والمعاكسة السافلة. ومن السفلة من يتصل على البيوت مستغلًا غيبة الراعي، ليتخذها فرصة عله يجد من يستدرجه إلى سفالته. وهذا نوع من الخلوة، أو سبيل إليها، وقد قال -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- فيما رواه البخاري ومسلم -: «إياكم والدخول على النساء». أي الأجانب عنكم. فهذا وأيم الله حرام حرام، وإثم وجناح، وفاعله حري بالعقوبة، فيخشى أن تنزل به عقوبة تلوث وجه كرامته»[٩].

٦- البخل:

فالبخل من مساوئ الأخلاق، ومن المخلات بالدين والمروءة، وهو مما يجلب الشقاء في الدنيا والآخرة. والبخيل بعيد من الله، بعيد من خلق الله، بعيد من الجنة، قريب من النار. والبخيل ضيق الصدر، صغير النفس، قليل الفرح، كثير الهم والغم، لا يكاد يقضى له حاجة، ولا يعان على مطلوب[١٠].

فتجد من الناس من يبخل بفضل ماله، مع أن لديه من المال ما يكفيه وذريته آلاف السنين لو عاشوها. ومن الناس من يبخل بجاهه، فلا يبذله في سبيل الخير من إعانة لمظلوم، أو شفاعة حسنة لمستحقها، أو نحو ذلك. ومن الناس من يبخل بنصحه، فلا ينصح أحدًا، بل ربما لو استنصح لبخل بالنصيحة. هذا وللبخل أبواب كثيرة، والغامض من تلك الأبواب أكثر وأكثر.

٧- المنة في العطية ونحوها:

فمن الناس من إذا أعطى عطاء، أو بذل نصيحة، أو أسدى معروفًا – أتبعه بالمن والأذى، والإدلال على من أحسن إليه. وذلك الصنيع خلق ساقط، لا يليق بأولي الفضل، ولا يحسن بأهل النبل،

فالمنة تصدع قناة العزة، فلا يحتملها ذوو المروءات إلا حال ضرورة، ولا سيما منة تجيء من غير ذي طبع كريم، أو قدر رفيع. قال - تعالى -: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة:١٤]. وعن أبي ذر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم» قال: فقرأها رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ثلاث مرات. قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: «المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»(١١). قال رجل لبنيه: «إذا اتخذتم عند رجل يدًا فانسوها»(١٢).

وقالوا: «المنة تهدم الصنيعة»(١٣). وقال ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: «لا يتم المعروف إلا بثلاث، بتعجيله، وتصغيره، وستره؛ فإذا أعجله هنأه، وإذا صغره عظمه، وإذا ستره تممه»(١٤).

وقال الشاعر:

أفسدت بالمن ما أسديت من حسن
ليس الكريم إذا أسدى بمنان(١٥)

ومع أن المنة وتعداد الأيادي ليس من صفات الكرام - إلا أن ذلك يحسن ويسوغ في حال المعاتبة والاعتذار. قال ابن حزم - رحمه الله -: «حالان يحسن فيهما ما يقبح في غيرهما، وهما المعاتبة، والاعتذار، فإنه يحسن فيهما تعديد الأيادي، وذكر الإحسان، وذلك غاية القبح فيما عدا هاتين الحالتين»(١٦).

٨- إخلاف الوعد:

فإخلاف الوعد من الصفات الذميمة، ومن الخصال المرذولة؛ فهو شعبة من شعب النفاق، وآية من آيات المنافقين. قال - عليه الصلاة والسلام-: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا أؤتمن خان، وإذا وعد أخلف»(١٧). وكرام الناس ينفرون من هذه الخصلة، و يأنفون من الاتصاف بها. قال المثنى بن حارثة الشيباني: «لأن أموت عطشًا أحب إلي من أن أخلف موعدًا»(١٨). وقال بعض الحكماء: «وعد الكريم نقد، ووعد اللئيم تسويف»(١٩). ولقد ابتلي بهذه الخصلة كثير من المسلمين، فما أقل الوفاء بالوعد، وما أكثر الخلف فيه، حتى خيل لكثير من المنهزمين، وممن يحملون الإسلام خطأ المنتسبين إليه أن الخلف من صفات المسلمين، وأن الوفاء بالوعد وإنجازه من صفات الكافرين! حتى إن بعضهم إذا أراد تأكيد الموعد قال: أعطني وعدًا إنجليزيًا! ومن مظاهر إخلاف الوعد الشائعة بين الناس ما يلي:

أ- الخلف مع الأولاد:

فكثير من الوالدين إذا أراد إسكات طفله، أو أراد التخلص منه إذا تعلق به عند الخروج من المنزل أو نحو ذلك - تجده يعده بهدية، أو حلوى أو نحو ذلك، ثم يخلف ما وعد به. فهذا مما يعود الطفل إخلاف الوعد، فينشأ وقد ألف هذه الخصلة السيئة.

ب- المزاح الثقيل، أو ما يسمى بـ"المقالب":

فيحصل أن يقوم شخص بدعوة أصحابه في مكان محدد، وفي زمان محدد، وربما كان المكان بعيدًا، فيخبرهم بأنه سيحضر لهم الطعام في ذلك المكان والزمان المحددَين، مع أنه قد بيت النية بالخلف.

فإذا ما جاءوا لذلك المكان لم يجدوا ما وعدوا به، وربما طال بهم الانتظار، فإذا أيسوا عادوا أدراجهم. فهذا الرجل جمع بصنيعه هذا عددًا من الأعمال القبيحة، فجمع بين الكذب، وقلة الحياء، وإخلاف الوعد، وأذية المسلمين.

ج- التأخر عن الموعد المحدد المرتبطة به أعمال معينة:

فما أكثر وقوع هذا الأمر، وما أقل من يضبط مواعيده، وما أكثر الآثار المترتبة على ذلك؛ فتأخر دقائق عن موعد البدء المحدد معناه ضياع دقائق من وقت العمل، وذلك يؤدي إلى نتيجتين: إما الإسراع في العمل وعدم الدقة فيه؛ لتعويض الزمن الفائت، وإما التعدي على أوقات خصصت لواجبات أخرى.

د- التأخر في المجيء للمضيف:

فكثيرًا ما يعد أحد الناس أضيافه بموعد محدد ليأتوه به، ثم يتأخر الأضياف أو بعضهم مدة طويلة عن الموعد المحدد، وقد يكون التأخر بلا عذر، مما يربك المضيف، ويوقعه في الحرج، كما يتسبب في إضاعة الوقت للمضيف ولمن جاء في الوقت المحدد.

هـ- التأخر في إرجاع الكتب المستعارة:

فيحصل كثيرًا أن يأتي أحد لصاحب مكتبة، أو طالب علم لديه مكتبة، فيطلب منه أن يعيره كتابًا، ويعِده بأن يرجعه في أقرب وقت.

فإذا ما أخذ الكتاب، وحصل منه على الفائدة التي يرجوها، تأخر في إرجاع الكتاب، وماطل في ذلك كثيرًا؛ بل ربما أضاعه، حتى إن صاحب الكتاب ليستحيي من كثرة التودد إليه، والتردد عليه؛ كي يرجع الكتاب؛ بل ربما اضطر إلى أن يشتري نسخة أخرى بدلًا من النسخة التي أخذت. وربما كان ذلك الكتاب جزءا من عدة أجزاء ولا يمكن شراؤه إلا بشراء الأجزاء كاملة.

و- التأخر في سداد الدين:

وقد مر عند الحديث عن قلة الحياء.

ز- الخلف في العطاء:

وهذا يقع كثيرًا، فتجد من الناس من يعد غيره بهدية، أو عطاء، أو نحو ذلك فلا يفي. وتجد من يعد غيره بعطاء؛ رجاء خدمة يقوم بها، فإذا حصل على بغيته أخلف موعده، وتناسى صاحبه. وتجد من يعد؛ تخلصًا من الإحراج مع أنه قد عزم على عدم الوفاء.

هذه بعض مظاهر الخلف في الوعد التي انتشر في أوساط الناس، والتي تسود بسببها الفرقة، وتحل القطيعة، وتفقد الثقة، فإخلاف الوعد من مساوئ الأخلاق، وهو مما يزري بصاحبه.

قال زياد الأعجم:

لله درك من فتى ... لو كنت تفعل ما تقول

لا خير في كذب الجوا ... د وحبذا صدق البخيل[٢٠]

وقال الآخر:

وإن جمع الآفات فالبخل شرها ... وشر من البخيل المواعيد والمطل[٢١]

وقال ابن حازم:

إذا قلت عن شيء نعم فأتمه ... فإن «نعم» دين على الحر واجب

وإلا فقل: لا، تسترح وترح بها
لئلا يظن الناس أنك كاذب(٢٢)

٩- الكذب:

فالكذب من الأخلاق المرذولة، والصفات القبيحة؛ فهوخصلة من خصال النفاق، وشعبة من شعب الكفر، وهو عنوان سفه العقل، وآية سقوط الهمة، وخبث الطوية. والكذاب مهين النفس بعيد عن عزتها المحمودة. قال الماوردي: «والكذب جماع كل شر، وأصل كل ذم؛ لسوء عواقبه، وخبث نتائجه؛ لأنه ينتج النميمة، والنميمة تنتج البغضاء، والبغضاء تؤول إلى العداوة، وليس مع العداوة أمن ولا راحة؛ ولذلك قيل: من قل صدقه قل صديقه»(٢٣). ولقد انتشر الكذب خصوصًا في هذه الأزمان المتأخرة، فما أكثر من يكذب في علاقاته ومعاملاته، وما أقل من يصدق في ذلك، مع أن نصوص الشرع جاءت حاثّةً على الصدق، محذّرة من الكذب. قال - تعالى -: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]. وقال - عليه الصلاة والسلام-: «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صِدّيقًا، وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»(٢٤).

ومن مظاهر الكذب المنتشرة بين الناس - الكذب على الله ورسوله -ﷺ- والكذب لإفساد ذات البين، والكذب لإضحاك السامعين، والكذب في المطالبات والخصومات، والكذب للتخلص من المواقف المحرجة. ومن مظاهر الكذب - أيضًا- نقل الأخبار الكاذبة، وحذف بعض الحقيقة، والتوسع في باب المصلحة، والمبالغة في المعاريض، والتملق لأرباب الثراء والجاه، والكذب على الأولاد، ونحو ذلك(٢٥).

❊ ❊ ❊

الهوامش:

(١) رواه البخاري٧/٨٨، ومسلم ٢٥٥٩ عن أنس بن مالك.
(٢) انظر: أمراض القلوب وشفاؤها لابن تيمية، تحقيق حماد سلامة ص ١٣٤.
(٣) انظر: أمراض القلوب وشفاؤها لابن تيمية، تحقيق حماد سلامة ص ١٣٤.
(٤) أدب الدنيا والدين، ص ٢٦٩.
(٥) أدب الدنيا والدين، ص ٢٦٩.
(٦) أدب الدنيا والدين، ص ٢٦٩.
(٧) الأدب الصغير والأدب الكبير، ص ١٤٤.
(٨) عيون الأخبار لابن قتيبة١/٢٨٤.
(٩) أدب الهاتف للشيخ د. بكر أبو زيد ص ٣١-٣٢.
(١٠) انظر: الوابل الصيب لابن القيم ص ٥١.
(١١) رواه مسلم١٠٦.
(١٢) عيون الأخبار ٤/١٧٧.
(١٣) عيون الأخبار ٤/١٧٧.
(١٤) عيون الأخبار ٤/١٧٧.
(١٥) عيون الأخبار ٤/١٧٧.
(١٦) الأخلاق والسير لابن حزم، ص ٧٨،١.
(١٧) رواه البخاري٣/١٦٢، ومسلم ٥٩ عن أبي هريرة
(١٨) بهجة المجالس٢/٤٩٤، وتنسب هذه المقولة لعوف بن النعمان الشيباني، انظر: الأمثال لأبي عبيد ص ٧١.
(١٩) بهجة المجالس٢/٤٩٤.
(٢٠) بهجة المجالس ٢/٤٩٦.
(٢١) بهجة المجالس ٢/٤٩٦.
(٢٢) ثمرات الأوراق لتقي الدين أبي بكر بن علي بن محمد حجة الحموي، ص١٤١.
(٢٣) أدب الدنيا والدين، ص ٢٦٢.
(٢٤) رواه البخاري٧/٩٥، ومسلم ٢٦٠٧ عن عبد الله بن مسعود.
(٢٥) انظر: الكذب مظاهره - علاجه للكاتب.

❊ ❊ ❊

القراءة الواضحة

للشيخ وحيد الزّمان القاسمي الكَيرانوي: دراسة تحليلية

بقلم: د. **محمد قمر الدين القاسمي** (*)

لقد اهتم الهنود باللغة العربية، تعلّمًا وتعليمًا وترويجًا، اهتمامًا بالغًا في كل وقت، وأقبلوا عليها إقبالاً تامًا لأسباب شتى، وأعدّوا كتبًا كثيرةً حسب مقتضيات الأزمنة المختلفة، والمستويات المتباينة، والأهداف المتضاربة، ومن أهم تلك الكتب «القراءة الواضحة» ألّفه الشيخ مولانا وحيد الزمان القاسمي الكيرانوي. وهذه الدراسة البسيطة تسلط الضوء على أهمية هذا الكتاب ومكانته في مجال تعليم اللغة العربية لطلّاب الهنود على الأخص، وتُقدِّم التحليل البسيط له. وبهذه المناسبة تُقدّم إليكم ترجمة موجزة لصاحب الكتاب.

صاحب الكتاب:

هو عالم هندي كبير، ومعلّم اللغة العربية الشهير الشيخ مولانا وحيد الزّمان القاسمي الكَيرانوي بن الشيخ مولانا مسيح الزّمان (ت: ١٩٨٢م). وُلد عام ١٩٣٠م/١٣٤٩هـ[1] في أسرة دينية علمية في بلدة «كيرانه» بمديرية مظفر نغر، بولاية أترابراديش، الهند. حفِظ القرآن الكريم وتعلّم الدّروس الابتدائية في قريته[2]، ثم سافر إلى حيدرآباد في عام ١٩٤٦م، وأقام بها سنة، وتعلّم العربية على الشيخ مأمون الدمشقي، ثم التحق بالجامعة الإسلامية دارالعلوم بديوبند عام ١٩٤٨م، وأتمّ دراسته العليا، وحصل على شهادة الفضيلة عام ١٩٥٢م. وبعد التخرّج من الجامعة عمل سكرتيريا للشيخ مولانا حبيب الرحمن اللدهيانوي، وحضر معه اجتماعات ولقاءات حكومية. وفي عام ١٩٥٩م أَسَّسَ في مدينة ديوبند مؤسسة علمية ثقافية باسم «دار الفكر»، وأصدر منها مجلة شهرية باسم «القاسم»، ونشر منها كتبًا عديدة. وفي عام ١٩٦٣م عُيِّن أستاذًا للغة العربية وآدابها في الجامعة الإسلامية دارالعلوم بديوبند كما أنه درّس مادتي التفسير والحديث فيما بعد أيضًا. وأسس «النادي الأدبي» في الجامعة عام ١٩٦٤م. وعُين مديرًا للمجلس التعليمي للجامعة عام ١٩٨٣م، وفي عام ١٩٨٥م عَيَّنَتْهُ الجامعة رئيسًا مساعدًا لها. كان عضوًا في المجلس الإداري والاستشاري في كثير من المدارس والجامعات، وأَشْرَفَ على النّوادي العربية الأدبية

(*) أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية، كلية ذاكر حسين دلهي، جامعة دلهي، الهند.
البريد الإلكتروني: qamar.arbeng@gmail.com

والثقافية في كثير منها. ولعلّ اهتمامه الكبير بتعليم اللغة العربية كلغة حية في الجامعة بثّ روحًا جديدةً تجاه اللغة العربية في المدارس والجامعات الأخرى التابعة لها أيضًا. وفي عام ١٣٨٥هـ أنشأت الجامعة مجلة عربية فصلية باسم «دعوة الحق» فأدارها، وبعد أن احتجبتْ رَأَسَ مجلة «الداعي»، كما أنه رأس مجلة «الكفاح». وفي عام ١٩٨٨م أسس مؤسسة علمية ثقافية باسم «دار المؤلفين»، وأصدر منها مؤلفات كثيرة. وبالإضافة إلى إنتاجاته وترجماته العلمية باللغة الأردية له تصانيف عربية، فألّف فيما بين ١٩٥٢م-١٩٥٩م، قاموسَيْنِ- من العربية إلى الأردية وبالعكس- باسم «القاموس الجديد»، أول قاموس من نوعه في شبه القارة الهندية، وألّف كتابًا في مختارات النثر العربي باسم «نفحة الأدب»، و«قراءة الواضحة» فيما بين ١٩٦٦م-١٩٧٠م، و«القاموس الاصطلاحي» من العربية إلى الأردية وبالعكس خلال ١٩٨٧م-١٩٨٩م،[٣] ثم أصبح دائم المرض فترك وظيفته التدريسية في الجامعة عام ١٩٩٠م، ولكنه رغم مرضه الدائم وضعفه وَاصَلَ جهوده العلمية، ففي عام ١٩٩٤م أكمل قاموسًا شاملاً من العربية إلى الأردية طُبع بعد وفاته باسم «القاموس الوحيد» عام ٢٠٠١م. تُوفّي الشيخ عام ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م[٤] في دلهي، وبعد صلاة الجنازة عليه دُفن في المقبرة القاسمية القريبة من الجامعة في ديوبند. خلّف وراءه مصنفات ومؤلفات عديدة، وآثارًا خالدة، وتلاميذ مؤهلين[٥].

القراءة الواضحة:

هذا كتاب عربي أعدّه الشيخ مولانا وحيد الزمان القاسمي الكيرانوي لتعليم اللغة العربية وترويجها حسب نفسية وعقلية وتطلبات طلاب المدارس الإسلامية العربية في الهند ومستواهم. وهو في ثلاثة أجزاء[٦]، بحجم صغير. أعدَّ هذا الكتاب فيما بين ١٩٦٦م و١٩٧٠م[٧]، و توالت الطبعات. الجزء الأول للكتاب يحتوي على ٤٣ درسًا في ٧٦ صفحة، والجزء الثاني مشتمل على ١٤ درسًا في ١٠٠ صفحة، بينما يحتوي الجزء الثالث على ٦٠ درسًا في ١٢٠ صفحة.

أعدّ هذا الكتاب على طراز أنيق، ومنهج جديد، وأسلوب حديث للتربية والتعليم، راعى فيه نفسية طلاب الهند وبيئتهم المدرسية الدينية، وأحوالهم الاجتماعية، واختار بِنية متينة قوية، وأسلوبًا سهلاً، وطريقًا تدريجيًا وترتيبيًا، آخِذًا نظرية الأسهل إلى الأصعب حيث لايصعب ضبطها ووعيها للدارسين. وقد أودعَهُ ثمرة تجاربه التدريسية الناجحة لأعوام طوال، بنى هذا الكتاب على أسس القواعد النحوية والصرفية، ولكنه ربما يتجنب في الجزء الأول التصريح بها لئلا تشوش ذهن الطلبة، ولأن يتعلموا اللغة العربية بالترتيب الطبعي حسب حاجياتهم اليومية المختلفة، وذلك لأن الهدف الأصيل هو أن يتمرّنوا على الجمل العربية البسيطة، وأن يتعوّدوا التعبير الصحيح تحت إشراف معلمهم، وبهذا سيتولد فيهم ذوق صحيح

للغة ودربة عملية في قواعد النحو والصرف، وفهمُ القواعد يكون أسهل عندما قد سبق للطلاب أن قد تمكنوا من فهم العبارات العربية البسيطة، ولديهم مفردات كافية من قبل. وكما أن الشيخ يؤمن بأن اللغة العربية سهلة، وإنما هي طريقة التدريس التي تجعلها صعبة، ولذا يهتم بتسهيل طريقة التدريس أيضًا من خلال استراتيجياته البديعة.

ويتميز هذا الكتاب بميزات منها: أن المؤلف قد طبّق طرائق حديثة فقد حلّى كتابه هذا بتدريبات مختلفة سهلة ممتعة فهو يأتي بتمارين مختلفة أمثال: محادثات، ومَلء الفراغات بوضع كلمات مناسبة أو وحدات قواعدية كوضع كلمة الموصوف والصفة وما إلى ذلك، وإعادةِ كتابة وقراءة القطع القواعدية، واستعمالِ الصيغ في الجمل، وإعداد جمل على شاكلتها، وعملية الترجمة إلى اللغة الأردية، وتدريبات النطق، وإعادة قراءات النصوص، وكتابة الأجوبة للأسئلة المبنية على الدروس المتعلقة بها، ووضع الحركات والأشكال العربية؛ لكي تدل على أن الطلاب قد فهموا الدرس بكامله.

ومن أهم الميزات لهذا الكتاب هو أن المؤلف لم يأت بالمثنى ولا الجموع في جزئه الأول؛ بل اكتفى بإتيان المفردات فقط[٨] في أسماء الإشارة، وفي الضمائر، وفي الجمل الاسمية، والمبتدآت والأخبار، وفي الأسماء والأفعال. فمن الإشارات يدرّس «هذا، هذه، ذلك، تلك»، ومن الضمائر يتناول «هو، هي، أنتَ، أنتِ، أنا، هُ، ها، كَ، كِ، ي»، ومن الأفعال الماضية يدرس جملاً مكوّنةً من صيغ المفرد المذكر الغائب، والمفرد المؤنث الغائب، والمفرد المذكر الحاضر، والمفرد المؤنث الحاضر والمفرد المتكلم، وهكذا في أفعال المضارع وفي أفعال الأمر والنهي. كما أنه لم يقدّم- في هذا الجزء- الفعل الثلاثي المزيد فيه، أو الرباعي المجرد إلا إذا اضطر إليهما. وإليك بعض الأمثلة من الجزء الأول: «هذا، ذلك، هذه، تلك، هذا قلم، ذلك ورق، هذه منضدة، تلك سبّورة»، (انظر الدّرس الأول)، و«أنا ولد، أنتَ رجل»، (انظر الدّرس الثاني)، و«أنتِ ذكية، هو جميل، هي جميلة»، (انظر الدّرس الثالث)، و«اسمه ماجد، اسمها زينب، اسمكَ ساجد، اسمكِ سعاد، اسمي خالد»، (أنظر الدّرس الخامس). والجدير بالذكر أن المؤلف لم يأت في هذا الجزء بأجزاء القواعد التي تشق على الطلاب، فحينما يكوّن أسئلة ملائمة لنصوص الدروس، ويحاول أن يكون الطلاب قادرين على الإجابة بالعربية لايستخدم كلمة «ليس»؛ لأنه من الأفعال الناقصة، ولها قواعد خاصة ربما تكون صعبة الفهم في بداية الأمر، فالمؤلف يكتب: «هل هذا مرسام؟ لا: هذا قلم»، وهكذا يتدرّج في أسلوبه ويراعي مستوى إدراكات الطلاب، ولايأتي لهم بأي تعبير جديد يصعب فهمه إلا إذا أراد المؤلف نفسه إفهام وتعليم شيء جديد. وعلى أسس القواعد يشمل الجزء الأول جملًا مختلفة، وعناوين وظيفية اجتماعية رُوعيت في ترتيبها وتنسيقها قواعد نحوية وصرفية أمثال:

«طلـوع الـشمس، دكـان الخـضري، القطـار، قـصر جميل، طفلة وعصفور، الله ربي» وما إلى ذلك[٩].

وفي الجـزء الثـاني قـدّم المؤلـف التـدريبات المـستخدمة نفـسها في الجـزء الأول أيـضًا، وخطـا خطـوة، وأضـاف تمـارين إكـمالِ الجمـل، وكتابـةِ المحادثـات وإنـشائها عـلى غـرار بعـض الـدروس. وعـالج في هـذا الجـزء الاسـم، والفعـل، والحـرف وأنواعها، والمركبات الناقصة والتامة، ومثنى الاسم والفعل، وجموع السالم والتكسير، واسم التفضيل، والأفعـال الناقـصة، وفعـل الثلاثـي المزيـد فيـه، والمفعـول لأجلـه وفيـه والمطلـق، وقواعـد نـصب الفعــل المــضارع، والفعــل المجهــول، والاســم الموصول، والعدد والمعدود، والظروف، وحروف الـشرط وأمثـال ذلـك. ومثـل الجـزء الأول يحتـوي الجـزء الثـاني أيـضًا عـلى الموضـوعات الاجتماعيـة والدينية حسب مستوى فهم الطلاب كأمثال: «في الـسوق، القطـار، دكـان الفواكـه، العـودة مـن الحـج، العبــادة، البريــد، الــصيدلية، المطعــم، الدجاجــة والثعلـب». استعان المؤلـف في إعـداد هـذا الجـزء بكتـب عربيـة صـدرت أخـيرًا مـن البلـدان العربيـة، وراعـى في بنـاء دروسـه قواعـد النحـو والـصرف الـضرورية[١٠]، وحـرص عـلى تغزيـر المـواد اللغويـة والأدبية الملائمة لطبيعة ونفسية النشء الجديد، كما أنه أتى بتمرينات ضرورية متعلقة بالدروس بهدف التسهيل عـلى المعلمـين لإيجـاد تمـارين أخـرى عـلى شـاكلتها، ليتعـود الطـلاب عمليـة التطبيـق والتعبـير الصحيح بسهولة بدون مواجهة أي صعوبة في سبيل الضبط والوعي للقواعد النحوية والصرفية.

وأما الجزء الثالـث للكتاب فقد اهتم المؤلـف فيـه بنفـسية الطـلاب أيـضًا، وبتنويـع مـادة الكتـاب، وجمع المعلومات، وتـوفير المواد والمفردات اللغوية والأدبيـة المعنيـة بحاجيـات الطلبـة اليوميـة لغـرض تمكينهم من التعبير الصحيح وتذويقهم ذوقًا رفيعًا ملائـمًا في الحقـل العـربي، ولتنـشئة ملكـة الإنـشاء والتكلم فيهم. وقد اعتمـد المؤلـف فيها على كتب عديـدة - مؤلفـة مـن قِبـل العـرب- تتحـدث عـن الـصحة والـدين والأدب كما نقـل بعـض نـصوص العرب بعد تغييرات ملائمة لبنيـة الكتـاب وخطـة مرسومه وأسلوبه[١١].

وجدير بالذكر أن المؤلف قد اختار في كل جزءٍ من هذا الكتاب أسلوبًا وطريقًا يحثّ الطلاب على النطق الصحيح والتكلّم بالعربية؛ ولذا في كثير من التمارين يـوجّههم أن يقومـوا بإعـادة قـراءة الجُمـل، ويقـدّم لهم أسئلة؛ ليحـاولوا الإجابة، ففـي الدّرس الأوّل نفـسه أتـى بأسـئلة ومحادثـات، وهـذا يعطـي دليلاً على أن المؤلّف يريد من الطلاب أن يتعوّدوا التحدّث بالعربية، ولعلّ هـذه الفكـرة دفعتْـه إلى أن يسمي كتابه هذا بـ«القراءة الواضحة».

وقـد أُلـف هـذا الكتـاب بـالاهتمام الزائـد، والتركيز الخاص، والدقة الشاملة، والعناية الفائقة، وفيه تتجلى براعة الأستاذ ومهارته في فهم مشكلات الطلاب، وتقديم الحلول لهم، فكِتابُه هذا يستحق

كـل التقـدير، وحقًّـا قـد لقـي إقبـالًا تامًـا مـن قبـل المعلمـين والمتعلمـين كلـيهما، وهـو مـن المقـرّرات الدراسية – في شبه القارة الهندية بصفة خاصة– في المـدارس الدينيـة العربيـة الأهليـة، وفي المـدارس العـصرية (Schools) الحكوميـة، وفي الكليـات، وفي الجامعات الحكومية على مستويات الدبلومات، بـما فيهـا جامعـة عـلي جـراه الإسـلامية، وجامعـة دلهـي، والجامعة الملية الإسلامية بدلهي الجديدة وغيرها.

❊ ❊ ❊

الهوامش:

(١) وه كوه كن كى بات (الأردية)، ص: ٢١٧، نشره اداره علم وادب ديوبند، سنة الطبع ١٩٩٥م، وهذا الكتاب يشمل جميع نواحي حياة الـشيخ وحيـد الزمـان القاسـمي الكيرانـوي، كتبـه تلميـذه الخـاص الـشيخ نورعـالم خليـل الأمينـي، أسـتاذ الأدب العـربي بالجامعـة، ورئـيس تحريـر مجلـة «الـداعي» الـشهرية، الـصادرة عـن الجامعـة الإسلامية دارالعلوم بديوبند، الهند.

(٢) وه كوه كن كى بات (الأردية)، ص: ٢٢٩.

(٣) أنظر المقدمتين للقاموسين.

(٤) وه كوه كن كى بات (الأردية)، ص: ٣٢٦.

(٥) للاستزادة انظر: وه كوه كن كى بات (الأردية).

(٦) ولعله أراد أن يعد هذا الكتاب في أربعة أجزاء كما أنه أبدى إرادته في مقدمة الجزء الأول للكتاب، ولكنه ما ظهر الجزء الرابع لأسباب لاتُعرف.

(٧) وه كوه كن كي بات (الأردية)، ص: ١٠٣.

(٨) ولعل بعض الجموع في الدرس الخامس والثلاثين قد أتت عفوًا، مثلا: الخُضر، سلات، طماطم وغيرها.

(٩) انظر: فهرس القراءة الواضحة، الجزء الأول، مولانا وحيد الزمان القاسـمي الكيرانـوي، كتـب خانـه حـسينية، ديوبنـد، يـوبي (سـنة الطباعة غير مذكورة).

(١٠) انظر: مقدمة القراءة الواضحة، الجزء الثاني، مولانا وحيد الزمان القاسـمي الكيرانـوي، كتـب خانـه حـسينية، ديوبنـد، يـوبي (سـنة الطباعة غير مذكورة).

(١١) انظر: مقدمة القراءة الواضحة، الجزء الثالث، مولانا وحيد الزمان القاسـمي الكيرانـوي، كتـب خانـه حـسينية، ديوبنـد، يـوبي (سـنة الطباعة غير مذكورة).

❊ ❊ ❊

المصادر والمراجع:

١- القـراءة الواضـحة، الجـزء الأول، مولانـا وحيـد الزمـان القاسـمي الكيرانوي، كتب خانه حسينية، ديوبند، يوبي، الهند، (سنة الطباعة غير مذكورة).

٢- القـراءة الواضـحة، الجـزء الثـاني، مولانـا وحيـد الزمـان القاسـمي الكيرانوي، كتب خانه حسينية، ديوبند، يوبي، الهند، (سنة الطباعة غير مذكورة).

٣- القـراءة الواضـحة، الجـزء الثالـث، مولانـا وحيـد الزمـان القاسـمي الكيرانوي، كتب خانه حسينية، ديوبند، يوبي، الهند، (سنة الطباعة غير مذكورة).

٤- وه كوه كن كى بات (الأردية)، الشيخ نورعالم خليل الأميني، اداره علم وادب ديوبند، ط: ١٩٩٥م.

٥- القاموس الجديد، العربية–الأردية، مولانا وحيد الزمان القاسمي الكيرانوي، كتب خانه حسينية، ديوبند، يوبي، الهند، (سنة الطباعة غير مذكورة).

٦- القاموس الجديد، الأردية–العربية، مولانا وحيد الزمان القاسمي الكيرانوي، كتب خانه حسينية، ديوبند، يوبي، الهند، (سنة الطباعة غير مذكورة).

٧- القـاموس الاصـطلاحي، العربيـة–الأرديـة، مولانـا وحيـد الزمـان القاسمي الكيرانوي، كتب خانه حسينية، ديوبند، يوبي، الهند، (سنة الطباعة غير مذكورة).

٨- القـاموس الاصـطلاحي، الأرديـة–العربيـة، مولانـا وحيـد الزمـان القاسمي الكيرانوي، كتب خانه حسينية، ديوبند، يوبي، الهند، (سنة الطباعة غير مذكورة).

٩- القاموس الوحيد، العربية–الأردية، مولانا وحيد الزمان القاسمي الكيرانوي، كتب خانه حسينية، ديوبند، يوبي، الهند، ط: ٢٠٠١م.

١٠- نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر وبذيله عقد الجوهر في علـماء الربـع الأول مـن القـرن الخـامس عـشر، الـدكتور يوسـف المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، ط: ٢٠٠٦م.

١١- المـستدرك عـلى تتمـة الأعـلام للـزركلي، الأول والثـاني، محمـد خـير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، ط: ٢٠٠٢م.

أمين عام منظمة «فيشواهندوبريشاد» يدلي بيانا استفزازيا: لولا دارالعلوم/ ديوبند لما كان إرهاب

بقلم: **مساعد التحرير**

ديوبند:

وسط ضغوط ومطالبات ببناء معبد الإله «راما»على أنقاض المسجد البابري، وسباقٍ إلى النيل من الإسلام والمسلمين الهنود وشعائرهم ومعالمهم الحضارية والثقافية والعلمية أدلى الدكتور/ سوريندرا جاين- أمين عام منظمة وشوا هندوبريشاد- بيانًا استفزازيًا، قال فيه: «لولا دارالعلوم/ديوبند لما كان الإرهاب على الأرض، وإن الإرهابي الباكستاني مسعود أزهر – بإيعاز من دارالعلوم/ديوبند- يهدد بضرورة الحذر من بناء معبد الإله «راما» على أنقاض المسجد البابري».

تفيد التفاصيل بأن «جاين» استهدف دارالعلوم/ديوبند وهو يدلي كلمة في مجلس ديني هندوسي عقدته منظمة «وشوا هندو بريشاد» قرب سوق الفواكه بديوبند، يطالب شركاؤه بضرورة بناء معبد الإله «راما» على أنقاض المسجد البابري في مدينة «أيودهيا» بأسرع وقت ممكن.

واتهم «جاين» في كلمته دارالعلوم/ديوبند بأنها تتلقى مساعدات من المملكة العربية السعودية وباكستان تعينها على تعليم الإرهاب وتربيته». لقد بلغ مسامعنا ما هدد به الإرهابي الباكستاني مسعود من أنه يفرش الأرض من دهلي إلى «لاهور» بجثث القتلى فيما إذا تم بناء معبد الإله «راما» على أنقاض المسجد البابري فاسمعوا وعوا: إنه سيلقى عاقبة وخيمة فيما إذا نظر إلى الهند نظرًا شزرًا.

وأضاف «جاين» قائلًا: «سنقوم بشن حركة غادروا الهند» فيما إذا لم يوافق البرلمان الهندي على قانون يقضي ببناء معبد الإله «راما» على أنقاض المسجد البابري. وسنقوم بانتقاء كل من لايؤمن بالإله «راما» واحدًا واحدًا ونجليهم من البلاد».

واستطرد قائلًا: «إن قضية بناء معبد الإله «راما» ليست قضية عاديّة، وإنما تشكل جزءا لايتجزأ من معتقدات وإيمان ألف مليون من الهندوس».

(صحيفة «انقلاب» الأردية اليومية، دهلي الجديدة/ ميروت، ص٣، السنة:٦، العدد:٣٠٥، الأحد: ٢٣/ربيع الأول ١٤٤٠هـ الموافق ٢/ديسمبر٢٠١٨م).

* * *

المحكمة العليا الهندية تبرئ ساحة أربعة شبان مسلمين من التهم الموجهة إليهم

دهلي الجديدة(إيس إين بي)

برأت المحكمة العليا الهندية ساحة أربعة شبان مسلمين من تهمة الإرهاب وغيرها من التهم الفظيعة، أفاد بذلك السيد غلزار الأعظمي – رئيس لجنة الدفاع المنبثقة من جمعية علماء الهند بقيادة فضيلة الشيخ أرشد المدني حفظه الله–، علمًا بأن هذه اللجنة تقدم مساعدات قانونية لثلاثة من المتهمين وهم: واصف حيدر، وممتاز مختارأحمد، وشفقت رسول، وأما المتهم الرابع – وهو الحاج عتيق أحمد– فقد دافعت عنه منظمة (A.P.C.R).

وأفاد السيد الأعظمي بأن اللجنة القضائية المكونة من اثنين من قضاة المحكمة العليا الهندية التي كانت تنظر في القضية ألغت المرافعة التي تقدمت بها حكومة أترابراديش المحلية ضد قرار المحكمة العالية بمدينة «إله آباد» بتبرئة ساحة المتَّهمين من التهم الموجهة إليهم.

وقالت اللجنة القضائية في قرارها: لم نجد في قرار المحكمة العالية بمدينة «إله آباد» خَلَلًا يوجب إعادة النظر في القضية وإدخال تعديلات في القرار الصادر عنها، وسيتم تزويد محامي المتهمين المبرأة ساحتهم بنسخة من القرار مفصلًا.

والجدير بالذكر أن لجنة التحقيقات والمباحث رفعت دعوى ضد كل من واصف حيدر، وممتاز مختار أحمد، وشفقت رسول، و الحاج عتيق أحمد بتهمة إثارة الشغب والهجوم على رجال الشرطة في ١٦/مارس عام ٢٠٠١م تحت بنود قانون العقوبات الهندي رقم ١٥٣–A، 436، 427، 149، 147،395، 307، 302. وادعت أن المتهمين كانت بحيازتهم البنادق والأسلحة المحظورة الأخرى، التي تم استخدامها في مقتل مسؤول الشرطة المدعو/باثاك في أحداث الشغب.

وتجدر الإشارة إلى أن مدينة «كانفور» شهدت عام ٢٠٠١م اضطرابات طائفية حين قام المسلمون بالاحتجاجات ضد انتهاك حرمة نسخ المصحف الشريف، ذهب ضحيتها (١٨) نسمة من الطائفتين الهندوس والمسلمين علاوةً على مئات الجرحى.

وبعد ما قدمت الشرطة لائحة الاتهام نظرت المحكمة المحلية في القضية وتداولتها، وانتهت إلى الحكم بالحبس مدى الحياة على المتهمين، في

٢٢/يناير عام ٢٠٠٤م، وتمَّت معارضة الحكم في المحكمة العالية بمدينة «إله آباد» التي عَدَّلت القرار الصادر عن المحكمة المحلية وقضت بتبرئة ساحة المتهمين في ٢٩/مايوعام ٢٠٠٩م، وتم إطلاق سراحهم بعد معاناة استمرت عشر سنوات قضوها في غياهب السجن، ثم استأنفت الحكومة المحلية القضية في المحكمة العليا الهندية بعد ذلك بأشهر، واستمرت مداولة القضية في المحكمة قرابة ثماني سنوات، حتى توصلت إلى تبرئة ساحة المتهمين، وتنفسوا الصعداء.

وفي السياق ذاته قال فضيلة الشيخ أرشد المدني -حفظه الله- وهو يرحب بقرار المحكمة العليا الهندية هذا-: «لقد حصحص الحق الآن مرة أخرى وصدق ما قلناه، كيف أنهم ينتهكون المثل العليا للقانون والعدالة ؛حيث إنهم يختلقون قصصًا واهيةً ضد الشبان المسلمين، ويقدمونهم على أنهم مجرمون إرهابيون رقم واحد».

وأضاف فضيلته: «طالما طالبنا الحكومات بضرورة إجراء تحقيقات عادلة نزيهة في مثل هذه القضايا بهدف كشف القناع عن هذه المكايد والمخططات البشعة حتى يُنتَصَف للمظلومين المغلوبين على أمرهم، كما يجب إنزال العقوبات الرادعة على المسؤولين الضالعين في مثل هذه المكايد الشنيعة، و أنه لابد من تعويض المتضررين وإعادة إعمارهم، ليبدأوا حياتهم من جديد، وللأسف لم تحرك مطالبتنا هذه ساكنًا في الحكومات».

واستطرد فضيلته قائلًا: «إن الشبان الذين يذهبون ضحية أمثال هذه المخططات البشعة تكون حياتهم قد دُمِّرَت تمامًا، ما أن يتم الانتصاف لهم، الأمر الذي يشكل انتهاكًا صارخًا لحقوق الإنسان، و من الظلم الفادح أنهم يتهمون بعض الأبرياء بتهُمٍ ملفقةٍ، تدمر حياتهم كلها، والحكومات تلازم الصمت الرهيب تجاهه وتتفرج عليه.

كما أعرب فضيلته عن عميق قلقه على أن الإعلام الهندي– حين تقوم الشرطة باعتقال أحد في مثل هذه القضايا – يعود كله أبواقًا وطبولًا، ويقدم المتهم على أنه إرهابي عنيف، من غير دليل يملكه على ذلك، ويكيل المدح والثناء على رجال الشرطة الذين يتولون اعتقال الأبرياء بدمٍ باردٍ، وأما حين تبرئ المحاكم ساحة المتهمين وتطلق سراحهم فلاينبس الإعلام ببنت شفة، ويلازم الصمت الفظيع، وهو أسوأ مثال على العصبية الشنيعة».

(صحيفة «راشتريه سهارا» الأردية اليومية، دهلي الجديدة، ص١، السنة:١٩، العدد:٦٤٥٣٧، يوم الثلاثاء: ٣/ربيع الآخر ١٤٤٠هـ الموافق ١١/ديسمبر ٢٠١٨م).

القائم بأعمال رئيس الجامعة يستقبل مسؤولا رفيع المستوى في حكومة ولاية "أتراخاندا" الهندية

بقلم: **مساعد التحرير**

استقبل صاحب الفضيلة الشيخ عبد الخالق المدارسي حفظه الله – القائم بأعمال رئيس الجامعة- المستر/إيس رافات- مسؤولًا في حكومة «أترا خاندا» يوم السبت ٨/ديسمبر عام ٢٠١٨م. و قال المستر/رافات في حديثه مع فضيلته في دار الضيافة الجامعية: «كانت تراودني أمنية زيارة هذه الجامعة منذ أمد بعيد، و قد تحققت في مثل هذا اليوم، ولقد سرني كثيرًا ما شاهدت من المباني القديمة والحديثة العملاقة الرائعة بما فيها مبنى المكتبة الجديدة قيد الإنشاء، وجامع رشيد، كما أعجبت كثيرًا بتقيد طلاب الجامعة بنظامها ولوائحها على أحسن ما يرام».

وقام فضيلة الشيخ المدارسي -القائم بأعمال رئيس الجامعة- بدوره بتعريف المستر «رافات» بنظام الجامعة الإداري والتعليمي، وقال وهو يسلط الضوء على خدماتها العلمية والقومية: «إن دارالعلوم/ديوبند مؤسسة تعليمية دينية غير سياسية، لقد بذلت جهودًا جبارةً مشكورةً رياديةً في تحرير البلاد من براثن الاستعمار الإنجليزي».

واستطرد فضيلته قائلًا: «إن دارالعلوم/ديوبند تلقِّن أبناءها حبَّ الوطن والبلاد، وعظَّمت دارالعلوم أمر الهند في المجال العلمي في عين الأوساط العلمية العالمية، ورفعت من قدرها على مستوى العالم، وهي نموذج حي خالد للمكانة العلمية».

ولم يفتْ فضيلتَه الإشارةُ إلى أن علماء دارالعلوم/ديوبند أول من بدأ حركة تحرير البلاد من براثن الاستعمار. وتشكل الدراسات الدينية أهمَّ أهداف هذه المؤسسة التعليمية، علاوةً على ذلك توفر لطلابها تعليم مختلف الحرف والمهن، والحاسوب، واللغة الإنجليزية وغيرها مما تدعو إليه متطلبات العصر الراهن.

(صحيفة «ميراوطن» دهلي الجديدة، ص٣، السنة:٣، العدد:٣١١، الأحد: غرة ربيع الآخر عام ١٤٤٠هـ الموافق ٩/ديسمبر عام ٢٠١٨م).

================

مسؤولون رفيعو المستوى في مصلحة ضرائب الدخل يزورون دارالعلوم/ديوبند

دبوبند(إين إيس بي)

زار وفد مكون من مسؤولين رفيعي المستوى في مصلحة ضرائب الدخل الهندية الجامعةَ الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند، واجتمع مع رئيس الجامعة فضيلة الشيخ أبي القاسم النعماني -حفظه الله-، الذي قام بدوره بتعريف الوفد بنظام الجامعة الإداري والتعليمي والتربوي، ومواردها المالية ومصارفها. كما شرح فضيلته للوفد خدمات الجامعة الرائعة الذهبية في خدمة العباد والبلاد، وقال فضيلته: «إن آفاق دارالعلوم/ديوبند العلمية والفكرية تسع العالم كله، وإنها تتسع بحركتها وخدماتها أكثر مما تتسع بعمائرها وأبنيتها».

وقال فضيلته: «لقد لعبت دارالعلوم دورًا رياديًا في تحرير البلاد من براثن الإنجليز، ولاتزال تنشر أنوار العلم وتدلي بدلائها في تطوير البلاد وخدمة العباد».

(صحيفة «راشتريه سهارا» الأردية اليومية، دهلي الجديدة، ص٥، السنة:١٩، العدد:٦٤٥٢٨، يوم الأحد: ٢٣/ربيع الأول ١٤٤٠هـ الموافق ٢/ديسمبر ٢٠١٨م).

بقية «إشراقة» المنشورة على ص ٥٦

أمّا «الوفاء» اصطلاحًا فهو – كما قال الجرجاني (أبوبكر عبد القاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني ٤٠٠-٤٧١هـ = ١٠٠٩-١٠٧٨م): «هـو ملازمـة طريق المواساة، ومحافظة عهود الخُلَطَاء». (التعريفات، ص:٢٧٤)

وقال الغزالي (أبو حامد محمد الغزالي الطوسي النيسابوري الشافعي: ٤٥٠-٥٠٥هـ = ١٠٥٨-١١١١م): «إن الوفاء هو الثباتُ على الحبّ وإدامته إلى الموت معه، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه» (إحياء علوم الدين ٢/١٨٧).

وقال ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعي الأفريقي: ٦٣٠-٧١١هـ = ١٢٣٢-١٣١١م): «هو الخلق الشريف العالي الرفيع» (لسان العرب ١٥/٣٩٩).

وقيل: «هو الصبر على ما يبذله الإنسان من نفسه، ويرهن به لسانَه».

وقال ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد القرشي التيمي البكري: ٥٠٨-٥٩٧هـ = ١١١٦-١٢٠١م): «العهد الذي يجب الوفاءُ به هو الذي يَحْسُنُ فعلُه؛ فإذا عَاهَدَ العبدُ عليه وَجَبَ الوفاءُ به، والوعدُ من العهد». وقال أيضًا: «العهدُ وهو عامّ فيما بينك وبين الله وفيما بينك وبين الناس» (زاد المسير لابن الجوزي:٢/٥٨٠، ط: دارالكتاب العربي، بيروت، لبنان).

وقال الزجّاج (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري بن سهل الزجاج البغدادي النحوي ٢٤١-٣١١هـ = ٨٥٥-٩٢٣م): «كلُّ ما أمر اللهُ به ونَهَىٰ عنه فهو من العهد» (زاد المسير ٣/٢٢٤).

وقال ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي الشافعي: ٧٠١-٧٧٤هـ = ١٣٠١-١٣٧٣م) في تفسير قوله تعالى: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ» (المائدة:١): قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني العهود (زاد المسير ١/٥٠٥).

وفي المعنى الاصطلاحي قال بعض العلماء: الوفاءُ حفظٌ للعهود والوعود، وأداء للأمانات، واعتراف بالجميل، وصيانة للمودة والمحبة، وعمل بمقتضاه.

فالوفاءُ خصلة اجتماعية خلقية جامعة لكل من الصدق والإخلاص والمروءة والكرم، والوفاء هو أصلُ الصدق: الصدق في القول والعمل معًا، وضدُّ الوفاء الغدرُ، فالغدرُ كذب بكل من القول والفعل، فالوفاءُ يستلزم القِيَمَ الساميةَ والمُثُلَ الإنسانيةَ، فمن تَجَرَّدَ من الوفاء تَجَرَّدَ من الإنسانية. وهو صفة تُقَرِّب الإنسانَ إلى الناس وتُقَرِّبُهم إليه.

ولذلك قيل: الصداقةُ زرعةٌ لابدّ أن نرويها بماء الإخلاص والوفاء، ونحيطها بتراب الزمن حتى تُظِلَّ دائمًا. وقيل: صديقُك من صدقَكَ وليس من صَادَقَك فَقط ولم يَصْدُقْك.

قال الشاعر:

سَلامٌ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا لَمْ يَكُنْ بِهَا
صَدِيقٌ صَادِقُ الْوَعْدِ مُنْصِفًا

وقال الشاعر

رَأَيْتُ الْحُرَّ يَجْتَنِبُ الْمَخَازِي
وَ يَحْمِيهِ عَنِ الغَدْرِ الْوَفَاءُ

لأن الكريم إذا وَعَدَ وَفَىٰ، فالوفاءُ من شِيَم الكرام، والغدرُ من صفات اللئام. قال عوف الكلبي: «آفة المروءة خلف الموعد» (الأمثال لابن سلام ص ٧١).

وعَزَّ على الكريم ذي المروءة أن يُخْلِف الوعد إذا وعد، قال الشاعر:

إِنَّ الْوَفَاءَ عَلَىٰ الْكَرِيمِ فَرِيضَةٌ
واللُّؤْمُ مَقْرُونٌ بِذِي إِخْلَافِ
وتَرَى الْكَرِيمَ لِمَنْ يُعَاشِرُ مُنْصِفًا
و تَرَى اللَّئِيمَ مُجَانِبَ الْإِنْصَافِ

* * *

وسُئِلَ أحد العرب: بأي شيء يُعْرَف وفاءُ الرجل بدون تجربة واختبار؟ قال: بحنينه إلى أوطانه، وتَلَهُّفِه على مامَضَىٰ من زمانه. إن من علامة وفاء المرء ودوام عهده: حنينُه إلى إخوانه، وشوقُه إلى أوطانه، وبكاؤُه على ما مَضَىٰ من زمانه. وإن من علامة الرشد أن تكون النفوس إلى مولدها مشتاقة، وإلى مسقط رأسها تَوَّاقَة.

وجَرَىٰ على ألسنة العرب الكرام: الوفاءُ والصدقُ يجلبان الرزقَ. وقالوا: الوفاءُ أصل الصدق والعقل، والغدرُ أخو الكذب والجور. وقالوا: الوعد والعهد وُجِدا للوفاء وأُبْرِما للأداء، فوعدٌ بلا وفاء عداوةٌ بلا سبب. وقالوا: لاخيرَ في قول بلا فعل، ولا مَنْظَر بلا مَخْبَر، ولا مال بلاجود، ولا في صديق بلا وفاء، ولا في فقه بلا ورع، ولا في صدقة إلّا بنية، ولا في حياة إلّا بصحة وأمن وعافية.

وقالوا: إن الصبرَ لله غناء، والصبرَ بالله بقاء، والصبرَ مع الله وفاء، والصبرَ عن الله جفاء. وقالوا: الحبُّ كالزهرة الجميلة، والوفاءُ قطرات الندى عليها. والخيانةُ هي كالحذاء البغيض الذي يدوس على الوردة فيَسْحَقُها. وقالوا: الوفاءُ عُمْلَةٌ نادرة، والقلوبُ هي المصارف وقليلةٌ هي المصارف.

وقال الأحنف بن قيس (٣ ق هـ -٧٢هـ = ٦١٩-٦٩١م):

لا صديقَ لِمَلُول، ولا وفاءَ لكَذُوب، ولا راحةَ لحَسُود، ولا مروءة لبخيل، ولا سُؤْدَدَ لسَيِّئ الخُلُق (عيون الأخبار لابن قتيبة: ١٣/٢، ط: دارالكتب العلمية، بيروت). وقال بعضُ الحكماء: من لم يَفِ للإخوان، كان مغمورَ النسب (آداب العشرة لبدر الدين العزي، ص:٥٢). وأوصت أعرابيةٌ ابنَها قائلة: يا بُنَيَّ! اِعْلَم أنه من اعتقدَ الوفاءَ والسخاءَ، فقد استجادَ الحُلَّةَ بَرَبْطَتِها وسِرْبالها، وإيّاك والنمائمَ فإنها تُنْبِت السخائمَ، وتُفَرِّق بين المُحِبِّين، وتُحْسِي أهلَها الأَمَرَّيْن (ربيع الأبرار للزمخشري: ٢٩٩/٥– ٣٠٠،

ط: دارالكتب العلمية، بيروت). وقال عوف بن النعمان الشيباني في الجاهلية (وقد أدرك النبي ﷺ وأسلم وكان من الصحابة): لأن أموت عَطَشًا أَحَبُّ إليّ من أن أكون مِخْلَافَ الموعدة (الأمثال لأبي عبيد بن سلام، ص٧١) وقال الحارث بن عمرو بن حجر الكندي: (آخر ملوك كندة الأقوياء وهو الجدّ الأول للشاعر امرئ القيس): أَنْجَزَ حُرٌّ ما وَعَدَ (المصدر نفسه) وقالت الحكماء: لا شيءَ أضيع من مَوَدَّةِ مَنْ لا وفاءَ له، واصطناع من لا شكرَ عنده، والكريمُ يَوَدُّ الكريمَ من لُقْيَة واحدة، واللئيمُ لا يَصِلُ أحدًا إلّا عن رغبة ورهبة. (العقد الفريد لابن عبد ربّه الأندلسي: ١٩٢/٢، ط: دارالكتب العلمية، بيروت).

وقال ابن مفلح (القاضي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي الدمشقي الصالحي ٧٠٨-٧٦٣هـ = ١٣٠٨-١٣٦٢م): كان يقال: كما يُتَوَخَّىٰ للوديعة أهلُ الأمانة والثقة، كذلك ينبغي أن يُتَوَخَّىٰ بالمعروف أهلُ الوفاء والشكر (الآدابُ الشرعية لابن مفلح، ٣١٠/١). وقال ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي: ٣٨٤-٤٥٦هـ= ٩٩٤-١٠٦٤م): إن من حميد الغرائز وكريم الشيم وفاضل الأخلاق، الوفاءُ، وإنه لمن أقوى الدلائل وأوضح البراهين على طيب الأصل وشرف العنصر، وهو يتفاضل بالتفاضل اللازم للمخلوقات. وأول مراتب الوفاء أن يفي الإنسان لمن يفي له، وهذا فرض لازم وحقّ واجب، لايحول عنه إلّا خبيث المحتد، لا خلاقَ له ولا خيرَ عنده. (طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي، ص٢٠٥). وقال كذلك: الوفاءُ مُرَكَّب من العدل والجود والنجدة؛ لأن الوفيّ رأى من الجور أن لا يقارض من وَثِقَ به، أو من أحسن إليه؛ فعدل في ذلك، ورأى أن يسمح بعاجل يقتضيه له عدمُ الوفاء من الحظّ؛ فجاد في ذلك، ورأى أن يتجلّد لما يتوقع من عاقبة الوفاء؛ فشجع في ذلك. (الأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم الأندلسي، ٦٠/١) وقال الحريري (أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري الحرامي: ٤٤٦-٥١٦هـ = ١٠٥٤-١١١٢م): تَعَامَلَ القرن الأوّل فيما بينهم بالدين زمانًا طويلًا حتى رَقَّ الدينُ، ثم تَعَامَلَ القرن الثاني بالوفاء حتى ذهب الوفاء، ثم تَعَامَلَ القرن الثالثُ بالمروءة حتى ذهبت المروءة، ثم تعامل القرن الرابع بالحياء حتى ذهب الحياءُ، ثم صار الناس يَتَعَامَلُون بالرغبة والرهبة. (آداب الصحبة لأبي عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي، ٧٣/١، ط: دارالصحابة، مصر).

* * *

رغم جميع ما يحتلّ الوفاءُ من الأهمية في الإسلام وعند العرب في الجاهلية والإسلام، لم يوجد الأوفياءُ الصادقون إلّا في الأقلّ النادر، فقال الله تعالى الذي يعلم السِّرَّ وأخفى ويعلم الصادق من الكاذب على ما هما عليه من الحقيقة:

«وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ

أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ» (الأعراف:١٠٢).

وقد ضَرَبَ به العربُ المثلَ في العِزَّة وقلة الوجود، فقالت: «هو أَعَزُّ من الوفاء».

وقال صفي الدين الحلّي (أبو المحاسن عبد العزيز بن سرايا بن نصر الطائي السنبسيّ – نسبة إلى «سنبس» بطن من «طيّ» -: ٦٧٧-٧٥٢هـ = ١٢٧٦-١٣٤٩م):

لَمَّا رَأَيْتُ بَنِي الزَّمَانِ وَمَا بِهِمْ
خِلٌّ وَفِيٌّ لِلشَّدَائِدِ أَصْطَفِي
فَعَلِمْتُ أَنَّ الْمُسْتَحِيلَ ثَلَاثَةٌ:
الْغَوْلُ والعَنْقَاءُ وَالْخِلُّ الْوَفِيّ

وقال آخر:

ذهَبَ الْوَفَاءُ ذَهَابَ أَمْسِ الذَّاهِبِ
فالنَّاسُ بَيْنَ مُخَاتِلٍ وَ مُوَارِبِ
يَغْشَوْنَ بَيْنَهُمُ الْمَوَدَّةَ وَالصَّفَا
وقلوبهم مَحْشُوَّةٌ بِعَقَارِبِ

والحقُّ أن الخُلَّان الأوفياء والإخوانَ الصادقين في الأُخُوَّة إنما يُعْرَفُون لدى الابتلاء والامتحان؛ حيث يُعْلَم عندها أنهم قليلون نادرون، وإن كانوا وقت الرَّخَاء والسعة والسعادة كثيرين. قال حسّان بن ثابت الأنصاري – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -:

أَخِلَّاءُ الرَّخَاءِ هُم كَثِيرٌ
وَلكِنْ فِي الْبَلَايَاهُم قَلِيلُ
فَلَا يَغْرُرْكَ خُلَّةُ مَنْ تُؤَاخِي
فَمَا لَكَ عِنْدَ نَائِبَةٍ خَلِيلُ

وَكُلُّ أَخٍ يَّقُولُ: أَنَا وَفِيٌّ
وَلكِنْ لَيْسَ يَفْعَلُ مَا يَقُولُ
سِوَىٰ خِلٍّ لَه حَسَبٌ وَ دِينٌ
فَذَاكَ لِمَا يَقُولُ هُوَ الْفَعُولُ

* * *

ولكي تعرف عظمةَ الوفاء وشرفَه؛ بل عُلُوَّ نسبه وحسبه، يكفيك أن تعرف أنه من صفات الله تعالى: «وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ» (التوبة:١١١) وقال تعالى: «وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ» (الروم:٦). وقال تعالى: «لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٌ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٌ مَّبۡنِيَّةٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ» (الزمر:٢٠). وقال تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ» (آل عمران:٩).

كما أن الوفاء من صفات الأنبياء والمرسلين. قال تعالى: «أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ» (النجم: ٣٦-٤١). وقال تعالى: «وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا» (مريم:٥٤).

أمّا وفاءُ النبيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فقد شهد به الأعداء قبل الأصدقاء، فعن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – قال: أَخْبَرَنِي أبو سفيان: أنّ هِرَقْلَ قال له: سَأَلْتُك ماذا يَأْمُرُكم؟ – أي النبي ﷺ – فزَعَمْتَ: «أنه يأمركم بالصلاة والصدق، والعفاف،

والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة». قال: وهذه صفةُ نبيّ.

وهناك أمثلة كثيرة لوفاء النبي -ﷺ- منها موقفه من عثمان بن طلحة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- حاجب الكعبة في الجاهلية، عند ما طلب من علي -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- ومفتاح الكعبة في يده أن يجمع لبني هاشم الحجابة مع السقاية، فقال -ﷺ-: «أين عثمان بن طلحة؟» فدُعِيَ له، فقال له: «هاك مفتاحَك ياعثمان!، اليوم يومُ برّ و وفاء» (زاد المعاد: ٣/ ٣٦٠، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت).

ومنها موقفه مع الصحابي أبي بصير -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عندما جاءه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بعد صلح «الحديبية» هاربًا من مكة، وجاء رجلان من قومه يطلبان ردَّه حسب الشروط التي تضمنته المعاهدة الموقعة بينه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وبين كفار مكة في «الحديبية» فأبى النبيّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلَّا أن يُنَفِّذ شروطَ الصلح. ولمّا تَأَلَّمَ أبو بصير من ذلك حتى لا يرجع إلى المشركين في مكة فيُفْتَنَ عن دينه، قال الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «يا أبا بصير! إنّا قد أعطينا هؤلاء القومَ ما قد عَلِمْتَ من العهد، ولا يَصْلُح في ديننا الغدرُ، وإن الله جاعلٌ لك ومن معك من المُسْتَضْعَفِين فَرَجًا ومخرجًا». وقد حَقَّقَ اللهُ تعالى ما تَنَبَّأَ به نبيُّه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إذ وُجِدَ لهؤلاء المُسْتَضْعَفِين الفَرَجُ والمخرجُ. والتفصيلُ مذكور ومعروف في كتب السيرة والحديث.

وكذلك هو – الوفاءُ – من صفات المؤمنين المتقين. قال تعالى: «وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ» (البقرة:١٧٧). وقال تعالى: «وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ» (المؤمنون:٨).

* * *

وإذا درسنا موضوع الوفاء بإمعان وجدنا أنه – الوفاءَ – ينقسم إلى قسمين أَسَاسِيَّيْن يندرج تحتهما جميع الأقسام: الوفاء بالعهود التي هي بين الله وبين العبد، والوفاء بالعهود التي هي بين العباد.

والوفاءُ مع الله معناه معرفةُ العبد بحقيقة أن الله هو الذي خَلَقَه فلا رَبَّ له سواه، ولا إله غيره، ولا معبودَ من دونه. ثم الإيمانُ بوجوده وأنه هو المُصَرِّف في الأكوان، فعبادتُه عبادةً خالصةً، واجتنابُ جميع أنواع الشرك، ثم الالتزام بدينه الحنيف، واتباعُ شرعه، والاقتداء بسنة نبيّه، واتباع جميع ما أَمَرَ به ونَهَىٰ عنه، مع الجهاد في سبيل الله؛ لأنه الطريقُ المُبَاشِر إلى دخول الجنة ووقايةِ النّار. وبالإيجاز: أن يؤمن بالله ورسوله، ويُوَحِّده ويطيعه في جميع أوامره ونواهيه.

وذلك لأن الله قد عَهِدَ إلى آدم – عليه وعلى نبينا الصلاةُ والسلامُ – وذريته أن يعبدوه حُنَفَاءَ ولا يشركوا به شيئًا. قال تعالى:

«وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ

بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ» (الأعراف: ١٧٢-١٧٣).

وعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – عن النبي –صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ– قال: «يقول الله تبارك وتعالى لِأَهْوَنِ أهلِ النارِ عذابًا: لو كانت لك الدنيا وما فيها أ كُنْتَ مُفْتَدِيًا بها؟. فيقول: نعم. فيقول: قد أردتُ منك أَهْوَنَ من هذا وأنتَ في صُلْبِ آدمَ أن لا تشرك – أحسبه قال – ولا أُدْخِلك النارَ، فأبيتَ إلّا الشركَ» (صحيح مسلم ٢٨٠٥).

قال تعالى:

«أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ» (يسين: ٦٠-٦١).

فمن آمن بالله و وَحَّدَه، وأطاع أوامره ونواهيه، وتَقَيَّدَ بشرعه، و وقف عند حدوده، ولم يَتَعَدَّهَا مهما كانت الظروف، كان من عباده الأوفياء معه، الجديرين بغفرانه وإكرامه يوم القيامة، وإسعاده في الدنيا كذلك.

ويلي الوفاءَ مع الله الوفاءُ مع نبيه –صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ– باتباعه في كل ما جاء به من عند الله تعالى، وحبه وحبّ صحابته حبًّا يفوق حبّ أحد منا لنفسه ولوالديه ولجميع الناس، وباقتداء سنته، وتبليغ دعوته، ونشر رسالته، والدفاع عن دينه بكل طريق ممكن، والتخلق بأخلاقه في المنشط والمكره.

* * *

أمّا الوفاء بالعهود التي بين العباد فهو كذلك مُتَنَوِّعَةٌ صورُه وكثيرةٌ مَظَاهِرُهُ. منها:

• التزامُ المسلم بالعهد الذي بينه وبين غيره من العباد والذي يشمل جميعَ أنواع العهود الشفهيّة والكتابية • وحفظُ حقوق الجيران، وعدمُ إلحاق ضرر أو أذى بهم؛ فلا تُسْتَبَاحُ حرمتُهم، ولا يُنَال من عرضهم، ولا يُسْتَحلّ مالُهم؛ فقد جاء في الحديث الذي رواه أبوهريرة –رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ–: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن». قيل: من يارسول الله؟!. قال: «الذي لا يَأْمَن جارُه بوائقَه». قالوا: يا رسول الله! وما بوائقُه؟. قال: «شَرُّه». (صحيح مسلم ٤٦).

• احترامُ الشروط والعقود المُوَقَّعَة بين المسلمين وبينهم وبين غير المسلمين، كما احترم النبيّ –صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ– شروط وبنود المعاهدة التي كانت بينه وبين غير المسلمين في «الحديبية» • أداء حقوق العباد إليهم بما فيها الديون والودائع والأمانات بأنواعها، وبما فيها الماديّة والمعنوية. قال تعالى: «وَ أَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا» (النساء:٥٨) وقال تعالى فيما يتعلق بحقوق الوالدين: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا» (الإسراء: ٢٣-٢٤) وهناك آيات عديدة

تؤكد حقوق الوالدين والبرَّ بهما. وعن عبد الله بن مسعود -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- سألتُ النبيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله؟. قال: «الصلاةُ على وقتها». قال: ثم أيٌّ؟. قال: «ثم برُّ الوالدين». قال: ثم أيّ؟. قال: «الجهادُ في سبيل الله». قال: حَدَّثني بهنّ، ولو استزدتُه لزادني (البخاري:٥٢٧). وعن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: جاء رجل إلى رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فقال: يا رسولَ الله! من أحق الناس بحسن صحابتي؟. قال: «أمّك». قال: ثم من؟. قال: «ثم أمك». قال: ثم من؟. قال: «ثم أمك». قال: ثم من؟. قال: «ثم أبوك» (البخاري:٥٩٧١) وفي الباب أحاديث أخرى.

• ويدخل ضمن الوفاء بالعهود، تربيةُ الأبناء والبنات، والإحسان إليهم، وتعليمهم وتوجيههم نحوَ الخير • والوفاء بحقوق المسلمين العامة، المتمثلة في إفشاء السلام، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وقضاء حوائج المحتاجين منهم، ومواساة المحزونين والمهمومين منهم • وإعطاء الأجير والعامل أجره كاملًا دون تأجيل إلّا عند عذر واضطرار • وأداء الأعمال والمسؤوليات المسندة إليه.

• وأحق العقود بالوفاء والالتزام هو عقد النكاح بين الزوجين، فعن عُقْبَةَ بن عامر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال: قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «أَحَقُّ الشروط أن تُوفُوا به ما استحللتم به الفروجَ». وقال تعالى: «وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا» (النساء:٢١).

* * *

وتُؤَكِّد الدراسةُ أن من ثمرات الوفاء بالعهد الأولية المتحققة مُبَاشَرَةً:

١- الحصول على التقوى؛ لأن الوفاء بالعهد من صفات المتقين كما نصّ القرآن الكريم على ذلك.

٢- الحصول على الأمان الدنيوي، وحقن الدماء، وحفظ حقوق العباد، والسلامة من النزاع والخصام، والتقاطع والتشاتم، وتبادل التهم، وفساد ذات البين.

٣- تكفير السيئات والفوز بالجنة.

٤- الفوز بالجزاء الذي سيناله المسلم لقاءَ اتباع أوامر الله ورسوله.

٥- تحصيل صفة الإيمان الذي قرنه النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالأمانة؛ حيث قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهدَ له» (المصنف لابن أبي شيبة ٣٠٤٠١) وقال تعالى يصف المؤمنين: «وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ» (المومنون:٨).

٦- محبّة الله؛ فقد أثبت الله محبتَه للمتقين الموفين بعهدهم، المستقيمين على عهودهم و وعودهم: «فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ» (التوبة:٧).

٧- الفوز بالأجر العظيم؛ حيث وعد الله تعالى الموفين بالعهد بأجر عظيم وجزاء موفور: «مِّنَ

ﭐلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ» (الأحزاب:٢٣-٢٤). وقال تعالى: «وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا» (الفتح:١٠).

* * *

ومُقَابِلَ ذلك كان جزاءُ الغادرين شديدًا في دين الله الإسلام، فعن عمرو بن الحمق - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «إذا اطْمَأَنَّ الرجلُ إلى الرجل، ثم قتله بعد ما اطْمَأَنَّ إليه نُصِبَ له يومَ القيامة لواءُ غدر» (الحاكم:٨٠٤٠).

وعن أبي سعيد الخدري - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «إن الغادر يُنْصَب له يوم القيامة، فيقال: ألا! هذه غَدْرَةُ فلان بن فلان» (البخاري: ٦١٧٧؛ ومسلم: ١٧٣٥).

قال المناوي – رحمه الله – (محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري المشهور بـ«المناوي»: ٩٥٢-١٠٣١هـ = ١٥٤٥-١٦٢٢م):

«يُنْصَب له يوم القيامة لواءُ غدر» أي بعَلَم يُعْرفُ به في ذلك الموقف العظيم، تشهيرًا له بالغدر على رؤوس الأشهاد، فلما كان إنما يقع مكتومًا أو مستورًا، اشتهر صاحبه بكشف ستره لتتم فضيحتُه، وتشيع عقوبتُه. وذُكِرَ في رواية أخرى أن ذلك اللواءَ يُنْصَب عند إسته مبالغةً في غرابة شهرته وقبيح فعلته، وعلى هذا فاللواءُ حقيقيّ». (فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير: ٢٩٨/١).

وقال تعالى:

«إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ» (الحج:٣٨).

وَفَّقَنا الله جميعًا للوفاء بعهود الله وعباده، فنكون من عباده المتقين، ولا نكون ممن يكرههم الله من الغادرين الخائنين.

قال المَعَرِّي (أحمد بن عبد الله بن سليمان القضاعي التنوخي المعري: ٣٦٣-٤٤٩هـ = ٩٧٣-١٠٥٧م):

تَجَنَّبِ الْوَعْدَ يَوْمًا أَنْ تَفُوهَ بِهِ
فَإِنْ وَعَدْتَ فَلَا يَذْمُمْكَ إِنْجَاز

وقال كعب بن زهير (كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني أبو المضرب: المتوفى ٢٦هـ/٦٤٦م):

لَشَتَّانَ مَنْ يَدْعُو فَيُوفِي بِعَهْدِهِ
وَمَنْ هُوَ لِلْعَهْدِ الْمُؤَكَّدِ خَالِع

وقال دعبل الخزاعي (أبو علي محمد دعبل بن علي بن رزين الخزاعي: ١٤٨-٢٢٠هـ = ٧٦٥-٨٣٥م):

وَلَا خَيْرَ فِي وَعْدٍ إِذَا كَانَ كَاذِبًا
وَلَا خَيْرَ فِي قَوْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِعْل

(تحريرًا في الساعة ١٢ من نهار يوم السبت: ٢٩/ربيع الأول ١٤٤٠هـ الموافق ٨/ديسمبر ٢٠١٨م).



حديثٌ عن الوفاء

الوفاءُ من الأخلاق الاجتماعيّة النبيلة، والصفات الجميلة الفضيلة الأصيلة، التي كانت العربُ تمتاز بها حتى في جاهليّتها، وجاء الإسلامُ، فزاد هذه الخصلةَ معنىً ودلالةً، وشمولًا وكمالًا، ورونقًا وبهاءً، وعمل على التأكيد عليها، والدعوة إليها، وتهذيبها بروحه السمحة الزكية العطرة؛ فقال الله عزَّ من قائل:

«يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ» (المائدة:١)

وعن عبادة بن الصامت –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– أن رسول الله –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قال: «اِضْمَنُوا لي ستًّا من أنفسكم، أَضْمَنْ لكم الجنة: أُصْدُقُوا إذا حَدَّثْتُم، وأَوْفُوْا إذا وَعَدْتُم، وأَدُّوا إذا ائْتُمِنْتُم، واحْفَظُوا فُرُوجَكم، وغُضُّوا أبصارَكم، وكُفُّوا أيديَكم» (مسند أحمد:٢٢٧٥٧).

وقد عَدَّ النبيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إخلافَ الوعد من آيات النفاق، فقال –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «آيةُ المنافق ثلاث: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذا أُتُمِنَ خَانَ» (البخاري:٣٣؛ ومسلم:١٠٧).

فما هو الوفاء الذي له هذه الأهميةُ القُصْوَىٰ عندا لعرب والإسلام؟. إنه لغةً –كما ورد في المعجم الوسيط– يُعْطِي بصيغه ومشتقاته معنى «التمام» و«الكمال» و«الأداء» و«الكثرة» و«الزيادة» و«الصدق» وما إلى ذلك.

فـ«وَفَى الشَّيْءُ ويَفِي وفاءً و وَفْيًا»: تَمَّ. يقال: وَفَى رِيشُ الجَنَاحِ. و«وَفَى الشَّيْءُ وُفِيًّا»: كَثُرَ. و«وَفَى فلانٌ نَذْرَه»: أَدَّاه. و«وَفَى بعَهْدِه»: عَمِلَ به. ويقال: «وَفَتْ أُذُنُه»: ظَهَرَ صدقُه في إخباره عمّا سمع. و«الشيءُ لا يَفِي بذلك»: يَقْصُرُ عنه ولا يُوَازِيه. و«هذا الشيءُ وَفَى الدرهمَ والمثقالَ»: عَادَلَه. فهو وَافٍ وهي وافية.

و«أَوْفَىٰ بالوعدِ والعهدِ»: وَفَىٰ. ويقال: «أَوْفَى اللهُ بأُذُنِه»: أَظْهَرَ صدقَه في إخباره عما سَمِعَتْ أُذُنُه. و«أَوْفَىٰ على المكانِ وفيه»: أَشْرَفَ عليه. و«أَوْفَىٰ على المِئَة»: زاد عليها. و«أَوْفَى القومَ»: أتاهم ولَقِيَهم. و«أَوْفَى نذره وبه»: وَفَّاه. و«أَوْفَى الكيلَ»: أَتَمَّه. و«أَوْفَى فلانًا حَقَّه»: أعطاه إيّاه وافيًا تَامًّا.

وهذه المعاني والاستعمالات جاءت كذلك في معاجم أخرى، ففي المنجد الوسيط في العربية المعاصرة: «الوفاء»: أمانة، صدق، إخلاص، ثبات على العهد. و«الوَفِيُّ (ج: أوفياء)»: من يفي بتَعَهُّدَاته أو يقوم بواجبه، فيقال: هو وَفِيٌّ بوعده. ويعطي «الوفيّ» كذلك معنى: مخلص، أمين، كثير الوفاء، فيقال: صديق وفيّ.

أبو أسامة نور
nooralamamini@gmail.com

(البقية على ص٤٨)